الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الإسلام

انطلاق ... لا جمود

تأليف الدكتور

مصطفى الرافعي

لجنة التعريف بالإسلام

اهداءات ٢٠٠١
ا.د. محمود دياب
جراح بالمستشفى الملكي المصري

التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

الإسلام

انطلاق ... لا جمود

تأليف
مصطفى الرافعي

الكتاب الثلاثون
١٣٨٦ - ١٩٦٦

يشرف على إصدارها :
محمد توفيق عويضة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كلما امتد عمر الانسان الحضارى ازدادت تبعاته ، واتسعت أمامه مبادين العمل والبناء ، وتشعبت حوله طرق التطور والارتقاء ، فما كان يحمله على عاتقه ــ وهو فى الالف الاول من سنى حضارته ــ ليس شيئا البتة اذا قيس بما يتراكم على عاتقه فى النصف الاول من الالف الثانى ؛ من متطلبات الحياة ، ومرافق النماء ، ووسائل العيش ، ومخاطر الوجود .

فخمسمائة عام كفيلة بأن تقلب مفاهيم العقل ، وأساليب المنطق . وأسس العلم . فما هو ثابت فى أولها يصبح لاغيا فى آخرها ، وما هو بديهى فى بدايتها ينقلب خرافيا فى نهايتها ؛ ولا يعوزنا التدليل على ذلك فهو بين واضح لكل ذى عينين .

ولست أدرى ، هل تكون نتائج الثورة الحضارية الجديدة ، التى تلف العالم من أقصاه الى أقصاه ، فى صالح الانسانية ومن أجل رخائها ، أم تكون هى الخطوات التى تنهى بها البشرية دورها ، والسطور الاخيرة التى تختم بها مسرحيتها . فالدلائل كلها تشير الى أن كل أربع وعشرين ساعة يضيفها الزمن الى عمر المدنية تزيد من انطلاقها فى المغامرة ، وشراهتها لتحقيق الفتوح ، وتضاعف فى تعشقها لفض المغاليق وتشوقها لحل المبهمات .

ولكن .. هل انتهت أزمة « الانسانية » ؟

وهل وجد الانسان ضالته المنشودة ... « السعادة » ؟

هل تآصر بنو آدم لتوفير الرخاء والهناء لبنى آدم ، أم انهم تآمروا على اقتسام الغنائم ، واستهام الانصبة فى الجهات الاربع من هذه الدنيا ؟

لن ارتجل جواباً لهذا التساؤل ؟

ولكننى أذكّر المتفائلين بالتاريخ نفسه .. تاريخ الحروب والايام الحالكة ، والدماء المراقة والمدن المدمرة ، والشعوب المشردة ، والبلاد المقسمة .

أذكرهم — ولعلهم لا ينسون — بأن فترة السلام كانت دائماً ، فترة قصيرة من عمر الانسانية تتخذها مهلة للاستعداد لحرب جديدة ؟ وان هذه الفترة لو امتدت طولاً وعرضاً ، لما كان امتدادها — ابداً — كافياً لتعمير ما هدمته الحروب ، ولتشييد ما قوضته الاسلحة ؟ . وأبرز دليل على ذلك ان الانسان المتحضر ، عانى فى أقل من نصف قرن من الزمن ، حربين عالميتين ، قدم خلالهما مئات الملايين من الاضاحى الغالية ، وحول فيهما عامر الارض غامراً ، ودمر امهات المدن .

وفى هاتين الحربين بددت الانسانية المتدينة ثروتها كلها — وتقدر بالبلايين — ثمناً للنار والبارود ، ومن أجل آلات الموت والافناء ، وفيهما أيضاً جعلت الانسانية عمالها ، وشبانها ، وشاباتها ، واشلاء قتلاها ، جعلت كل ذلك حشواً للمدافع ، وطعاماً للهب .

وماذا كانت نتيجة الاحتراب الطويل ؟ — وقد عرضت بايجاز صورة أخيرة منه — وهل وجد الانسان نفسه فى منجى من العاصفة ؟

هذا هو أمل الانسان .. الامل الذى يتضاءل وتتهارب أخيلته الحلوة ، أمام نذر الحرب التى تحوم فى الاجواء العالمية ، وتهدد بالفناء كل ذى عرق نابض .

لقد قدح المفكرون زناد أدمغتهم ، وابتكروا مخارج عدة للازمة الخانقة ، ابتكروها فى أثواب نظرية براقة ، يخيل للناظر اليها من بعيد ، انها هى آخر المطاف فيما يتعلق بالتنازع الفكرى ، وانها هى الجنة المرتقبة التى يحلم بها البائسون على الارض ، وانها هى خشبة الخلاص التى ستنقذ الانسانية المشرفة على الغرق .

ابتكروا : الديموقراطية ، والملكية المقيدة ، والديكتاتورية ، والشيوعية والرأسمالية ، والوجودية ، والبيروقراطية ، والبورجوازية ، الى آخر تلك المذاهب السياسية الحديثة التى يضطرم حولها النقاش ، وتضطرب هى فى الحياة ، وتحاول كل منها أن تضم حول نفسها أكبر عدد ممكن من الانصار . وأخيراً .. ظهرت الى الوجود نظرية أخرى هى : القومية ، تقاطرت الشعوب على منهلها ، واستقت من مبادئها ، وآمنت بفكرتها ، وتطرف فريق من الناس فى فهمها وتطبيقها ، واعتدل فريق آخر وسرت القومية سريان النار فى البلاد العربية ، وأصبحت عماد النهضة ، ومعقد الامل ، ومحور العمل الايجابى والتفكير السياسى .

فاين يقف الاسلام فى زحمة هذه المبادىء ، وضوضائها الكبرى ؟

بل اين تقف هذه المبادىء وتلك النظريات من الاسلام ؟

ان قارىء هذا الكتاب يجد الاجابة على هذه الاسئلة ويجد ان هذه الاجابة لا تخرج عن السرد المنطقى لتفاعل هذه النظريات ، والبيان الصريح لامتدادها حيناً ، وانكماشها حيناً آخر ، ووضوحها تارة ، وغموضها تارة أخرى ، ولا تتخطى الايضاح المنهجى بقولنا ان هذه النظريات ليست الا محاولات جديرة بالاعتبار والتقدير ، قامت فى اطراف الارض ، لاسعاد بنى الانسان ، ولكنها للأسف لم تحقق شيئا من ذلك ! .

ان هذه المحاولات أشبه ما تكون بأدلة متماسكة النسج ، قوية التركيب فصيحة المنطق ، غير انها تساق فى معرض الدفاع عن متهم محكوم عليه ؟

اننا نرى أن الانسانية تعانى امراضاً خطيرة ، قد يكون فيها فناؤها ، ولسنا نشك بأن المحاولات النظرية التى برزت خلال النهضة الانسانية الاخيرة ، لتفادى الكارثة ، أثرت تأثيراً موضعياً ، أشبه ما يكون « بالمخدر الطبى » الذى يؤجل الالام ولا يقضى عليها .

ومن خلال ابحاث هذا الكتاب يلاحظ القارىء اننا قمنا بجولة فى سوق النظريات — ونحن نحمل الاسلام فى صميمنا — ورحنا نلاحظ ما يباينه ويجافيه ، ونظهر ما يواكبه ويجاريه ، ولم نخرج من هذه الجولة بنتيجة محددة ، ولا حملنا القارىء حملا على رأى معين ، أو اعتقاد محدد ، بل تركناه يزاملنا فى الطريق ، ليتحقق فى النهاية من ان : (الاسلام انطلاق لا جمود) وليكون له فى هذه المباحث خير معوان على الهداية والاصابة وحسن التمييز .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق .

مصطفى الرافعى

الإسلام عبر العصور

* ان الاسلام لم يتغير ولم يتبدل رغم تطاول الايام عليه وتصارع المدنات حوله ، وليس بينه وبين أى عقيدة أخرى عداوة ولا خصام وهو لا يضمر الحقد لأى دين .

* ومن حسن حظ الاستعمار ان هذه البلاد كانت تخضع — فى آخر أيامها — لحكم يحمل الاسم الاسلامى وليس فيه شيء من روحه أو مقاصده .

* ان مستقبل الاسلام زاخر كالبحر ، والشعوب الاسلامية تتفاعل فى رحابها قوى ناشئة ، وطاقات فتية خلاقة . فعليها وعلى الأديان السماوية عامة أن تبدأ جهادها فى اعادة البناء .

ولقد تطوعت بعض القوى فى فترات قصية ودانية ، وعصور ماضية وحاضرة ، على الايقاع بين الاسلام بالذات وبين المدنية ، واظهار هذا الدين الحنيف بمظهر المبدأ المتعنت المستبد ، والذى لا تسرى فى أوصاله الحياة الا اذا تغذى من دم المدنية المسفوح وثقافتها المبددة .

رسالتنا :

ودراستنا الآن حول الاسلام فى أمسه ، وحاضره ليست الا قصة صادقة عن هذه العقيدة عبر فترتين متباينتين من التاريخ ، نهضت فى أولاهما نهضة جبارة ، وسكنت فى ثانيتهما سكونا عجيبا . ومن حق الاسلام علينا ،

ونحن رواده واتباعه ، ان نظهره للملأ عذباً صافياً كما تنزل من السماء وان ندرسه كمبدأ وعقيدة ، تقف وجهاً لوجه مع الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية وسواها من مبتكرات العقل الانسانى وان نلم بجوهره وروحه ليتسنى لنا من بعد ان ننفى عنه الاوشاب والاعراض ، وان ننزه وجهه الكريم من الكلف المفتعل ، وخصوصا بعد ان استغل هذا الدين اعداؤه ، ونسيه ابناؤه فى عصور الجهالة والظلام .

حقيقتـــان :

وقبل ان انتقل الى صلب الموضوع ، أحب أن أقرر أمرين لا جدال فيهما ولا شك فى صدقهما وهما :

أولا ــ ان الاسلام كدين سماوى لم يتغير ولم يتبدل رغم تطاول الايام عليه وتصارع المدنيات حوله . فالقرآن ، كلام الله العلى الأعلى ، ما فتىء الينبوع الاول الذى يسقى هذه الدوحة الشامخة العملاقة الممتدة الفروع والأغصان والاظلال ، وسنة الرسول ما فتئت المشكاة الهادية . امـا الذين تغيروا وتبدلوا وباعدهم حاضرهم عن أمسهم ، اما الذين أضاعوا القـرآن وضلوا سواء السبيل ، فهم المسلمون اتباع ذلك الدين الذى كان نظامـاً وعقيدة ، ففهموه اليوم مجرد شعائر تقليدية ، ومظاهر عادية لا جدوى فيها ولا عطاء .

ثانيا ــ ليس بين الاسلام وبين أى عقيدة أخرى أو شعب آخر عداوة تقليدية كما يدعى بعض انصاف المتعلمين ، وهو ، كفكرة ، لا يضمر الحقد لاى دين آخر كما يحلو لبعض تجار الأديان ان يتخرص ويختلق . وسنعرض لهذه الناحية بالتفصيل الوافى فيما بعد ، والذى يهمنا ذكره الآن هو تعليل الخصام بين الاسلام ، أو على الاصح بين المسلمين وبين سواهم .

الاسـلام بين الشرق والغرب :

لقد ولد الاسلام ، فى الشرق ، شأن باقى الاديان السماوية ، ولـم يحالفه الحظ ، أو على الاصح لم يحالف جنوده التوفيق فى غزو الغـرب واخضاعه لمنهجهم فى الحياة وطريقتهم فى العيش .

غير أن هذا الوضع لم يكن عائقاً لانتتوطد الصداقة بين الشرقالمتدين والغرب المتدين ، وتلك هى أخبار (شارلمان) والرشيد غنيـة عن الدلالة والترديد .

وتوثقت أواصر الاحترام بين الشرق والغرب ، وشاء سوء الطالع ان يسيركل من الصديقين الودودين فى اتجاه مغاير للاخر ، وتعاقبت الاجيـال وتغيرت الاحوال حتى كان هذا العصر ، فاذا بالغرب قد تخلص من قيـود دينه السـماوى وتنكر لمفاهيمـه ، وتمنطق بالعقل الانسـانى ، وبالمقدرة البشرية ، وسار أشواطاً بعيدة فى هذا السبيل . اما الشرق فقد فعل العكس تماماً وما زال يراجع نفسه ويطالع أمسه ويقلب تراثه السماوى بـين يديه حتى بليت يداه واعتل فهمه ، وسقمت حيويته وشلت حركته وغفا ردحـاً طويلا من الزمن .

جرثومة الاسـتعمار :

ومن هنا ، من وهن هذا وتطلع ذاك ، من خمول هذا وطمـع ذاك ، نشأت الجرثومة القاضية التى نخرت جسم البشرية.. نشأ الاستعمار وملأت تلك الفكرة بصورها الخلابة ، من سيطرة وتسلط وثروة وملك ، ادمغـة العالم الغربى فى العصر الذى يسميه المؤرخون عصر النهضة .. وبرزت الى الوجود صور الخصومة الحادة حينـاً والدامية حيناً آخر بين الصـديقين القديمين لتخلى كل منهما عن كنزه واقلاع كل منهما عن فكرته .

نظرة على المـــاضى :

بعد أن قدمنا هذه الايضاحات الاساسية بالنســبة لحقيقة الاسلام ، والهامة بالنسبة لبحثنا ، ينبغى ، لنا ، كى نستطيع ان ننقل القارىء الى جو الاسلام الصافى وننقل اليه روائع صوره وبدائع أعماله ، ينبغى لنا أن نعود بالزمن القهقرى خمسة عشر قرناً ، الى العصر الجاهلى الاعمى ، الى عصر الضياع الروحى وقلق المصير ، يوم كانت جزيرة العرب تغرق فى الجهــل والظلام والدم والفتنة ، ويوم كانت الكلمة فيها للسيف الراعف والساعد القوى ، ويوم كانت مصائر الناس ومقاديرهم فى قبضة وثنية ساذجة ، ويوم كانوا هم أنفسهم عبيدا لأصنام لا تجلب نفعا و لاتدفع ضرا ، أصــنام مع نحاس بليد جامد ، أو من تمر يلتهمه عباده اذا جاعوا .

بداية المعجزة :

فى تلك الغمرة من الضلال ، أشرقت فى بيت من بيوت قريش طفــولة كانت فى سجن الزمن صفحة بعث وانطلاق .. فلقد ولد محمـــد بن عبدالله وولد معه تاريخ جديد حافل بالاحداث التى قدر لها ان تكون يوماً مرتكزاً لنهضة جبارة ، وغد مجيد .

وشب اليتيم ليضطلع باعباء الرسالة ويشن على الوثنية حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، ويدعو الى اله واحد لا شريك له ، ويركز فى نفوس العرب قيماً جديدة قامت عليها ركائز وثبتهم الكبرى التى حركت ركب الانسانية ودفعته بقوة وعزم الى الطريق السوى والحق المبين .

وقضى محمد وله من العمر ثلاث وستون سنة ، فما هى التركة التى خلفها للبشر من المبادىء والأسس والأصول ؟

حقوق الانســـان :

أما حقوق الانسان فقد كان محمد أول واضع لهذه الحقــوق التى ادعتها الثورة الفرنسية فلخصها قادتها بكلمات ثلا ثأو شــعارات ثلاثة : الحرية والمساواة والاخوة . ثم انبرت أميركا بعد ذلك تزعم لنفسها السبق وتعلن فى وثيقة الاستقلال عام ١٧٧٦ انها تعد الحقائق التالية من البديهيات :

* خلق الناس جميعا متساوين . وقد منحهم الخالق حقوقا خاصة لا تنتزع ، منها : الحياة والحرية والسعى وراء السعادة .

* اما المساواة ومعناها أن يكون الناس جميعاً متساوين امام القانون، متساوين فى الحقوق والواجبات ، فقد أكدها محمد بقوله : « الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » و « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ولم يكتف بالقول المجرد بل أتبعه بالعمل الحازم العــادل . واجاب صحبه حين طلبوا منه العفو عن سارقة لشرف أسرتها ومكانتها : « انمــا أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا اذا أذنب الضعيف فيهم عاقبوه واذا أذنب الشريف تركوه والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » .

* واما المساواة فى القضاء فلم تكن للنبى العربى سوى مجلس قضائى واحد يمثل أمامه الناس كلهم دونما تمييز بين رفيع ووضيع ، وغنى وفقير .

* واما المســاواة فى التوظيف فليس أدل عليهــا من هــذا الحديث الشريف : « من ولى رجلا شيئاً من أمور المسلمين وهو يعلم أن فيهم من هو أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين » .

* ومثل هذا يقال فى الضرائب فانها تجبى من الناس على قدم المساواة فمن كثر ماله كثرت تكاليفه ومن قل ماله قلت تكاليفه .

* واما الاخوة فالنبى العربى هو أول من نادى بالاخــوة العقائدية والاخوة الانسانية : «انما المؤمنون اخوة» والانسان أخو الانسان أحب

أم كره، وهو أول من آخى بين الأنصار والمهاجرين حتى تقاسموا البيوت والاموال ، وأول من خص الفقراء والمساكين بحظ موفور من موارد الدولة حتى بات هؤلاء يشعرون بالوجود الصحيح والكرامة الكاملة فى أمتهم وشعبهم . ولقد تأثر خلفاؤه من بعده بهذا السلوك الانسانى الرفيع ، فأعطوا الاماثيل فى التغاضى ، وما ونوا عن الجهاد لتحطيم الحواجز الطبقية واشاعة المساواة والعدالة بين الناس .

* أما الحرية .. فقد هيأ لها الاسلام أنقى الاجواء ، لقد حرم الشرك بكافة صوره وحاربه بكافة أشكاله ، فالله العلى الاعلى هو وحده رب الناس فمن يعبد غير الله فهو مشرك ، ومن يستعبد غيره فهو أيضاً مشرك ، وفى هذا قضاء على كل أنواع العبوديات . لقد حرر الاسلام الناس من الرق أولا ، حرر أجسادهم من سوط السيد وطغيانه ، ثم حرر بعد ذلك أفكارهم وعقولهم ، وفى ظل هذا التسامح وقف خليفة قوى الشخصية عبقرى الرأى هو عمر بن الخطاب وصاح فى وجه أولئك الذين يطمعون فى استعباد الناس واذلالهم صيحته التاريخية المشهورة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

الاسلام والعقائد :

ان أنصع صفحة ترصع تاريخ الاسلام هى الصفحة التى خلفها بعلاقاته مع الاديان وآثاره فى معاملتهم . لقد كان لقاؤه مع المسيحية واليهودية لقاء محبة واحترام : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » . وكان شعاره فى رسالته : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، كما كان شعاره فى دعوته : « لا اكراه فى الدين »

ويحق لنا أن نقول بفخر ان الاسلام كان يحمى حرية المعتقد ، ويحتضن بالذات أهل الذمة .

ولم يسمع عن رسول الله وعن خلفائه من بعده انهم قتلوا نصرانياً لانه لم يسلم ، ولم يسمع عنهم انهم عذبوا كتابياً أو سجنوه أو منعوه من التعبد واقامة شعائر دينه ، ولم ينقل عنهم انهم خلال فتوحاتهم الحربية ودعواتهم السلمية ، هدموا كنيسة أو قوضوا بيعة وانما قال التاريخ : ان رسول الله صالح نصارى نجران فكتب لهم عهداً جاء فيه :

« ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعتهم وغائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش » .

المسلمون وأهل الكتاب :

ولقد كان للاسلام مع أخوانه اتباع الاديان السماوية الاخرى قصص يرويها التاريخ باعجاب واكبار وتقدير ، اعجاب بالدين الذى حارب من أجل العدالة وبذل من أجل سيادة الحق ، وتفانى من أجل الكرامة الانسانية ، الدين الذى لم يكن بينه وبين مواطنيه من اتباع الديانات الاخرى ولاء محتوم ولا طاعة مفروضة ، بل كان من صور هذا الوفاء ، كما حدثنا البلاذرى فى فتوح البلدان انه لما جمع هرقل جموعه ، وجيش جيوشه وسار الى المسلمين ، بعد أن خرجوا من وقعة اليرموك وأكاليل الغار على نواصيهم وبعد أن كانوا قد استوفوا الخراج من أهل حمص ليدفعوا عنهم أذى الحرب وليغنوهم عناء القتال . قال البلاذرى : « رد المسلمون على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص ، لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم ولندفعن جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم » .

وقال البلاذرى أيضاً : « ونهض اليهود ــ اليهود أنفسهم ــ قائلين : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان نغلب ونجهد . فاغلقوا

أبواب المدن وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود » .

رأى مؤرخ غربى :

ولنستمع الآن الى مؤرخ آخر ، انه (آدم متز) حيث يقول :

« ان بعض الخلفاء كانوا يحضرون مواكب النصارى وأعيادهم ويأمرون بصياتتها وان الحكومة فى حالة انقطاع المطر كانت تأمر بتسيير مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الاسقف واليهود ومعهم النافخون فى الابواق ، وان الاديرة كذلك ازدهرت وتكاثرت » . ولم يقف تسامح المسلمين عند هذا الحد ، فهذا آدم متز يقول مظهراً استغرابه وتعجبه : « من الامور التى نعجب بها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين فى الدولة الاسلامية فكأن النصارى هم الذين يحكمون المسلمين فى بلاد الاسلام » .

جريمة الاستعمار :

ان ما فتحنا عليه أعيننا من انشقاق وطنى وتباعد عاطفى ، وتباين فى الغايات والاهداف .. كل هذا صنعته أيدى المستعمرين .. فانهم لم يجدوا حيلة انفذ ولا وسيلة أدهى من أن يلبسوا مسوح المتدينين ، ويعلقوا على صدورهم أوشحة الصالحين ويرسموا على وجوههم براءة القدسين ، وهم — فى الواقع — أبعد ما يكونون عن طهارة الدين وترفع رجاله ، ونواياهم ادنى من أن توصف الغيرة على مصالح الاله ، لانهم يعبدن أنفسهم ، ويقدسون مصالحهم ، ويحترمون تجارتهم ، وما الله والدين من بعد ذلك الا وسيلة ناجحة يفتحون بها أسواقاً جديدة ، ويستعبدون بها شعوبا ضعيفة ، ويمتلكون بها بلاداً واسعة غنية .

ولقد كان من حسن حظ الاستعمار فى السابق ، أن هذه البلاد خضعت فى آخر أيامها لحكم يحمل الاسم لاسلامى وليس فيه شىء من روحه أو مقاصده

وليس له مثل طريقته أو منهجه ، وكان المسلمون تائهين فى غمرات من العماية والجهل والفوضى ، جعلت بلادهم مسرحا عجيبا من المتناقضات والمتباينات . فباسم الدين ولصيانة الطوائف ، تقيم هنا دولة من الدول ، وباسم تحضير الناس وتمدينهم تقيم دولة هنالك ، ولا تتورع هذه الدولة من أن تحتضن زوراً وبهتاناً طائفة من الناس وتصطنعهم لنفسها ، لتقف فى وجه الدولة الاخرى التى تحتضن طائفة أخرى .

وياويح الشرق ! لقد لبث فترة طويلة من الزمن ، تحارب يمينه شماله ويقاتل شقيقَه شقيقُه ، ويجد النار مندلعة فى داره ، يحترق منها كبده ولا يدرى انه هو وقودها ، وان أبناءه هم حطبها ولهيبها ، ولا يدرى انه هو مغمَّض العينين الى هاوية ليس لها قرار .

لا تعصب فى الاسلام :

لم أنشأ التبسط فى هذه النقطة الالأفى وعدا قطعته من قبل بأن أظهر انسجام الاسلام فى حقيقته مع غيره من العقائد ولأقرر أمراً هو ان الاسلام فى صفاته بعيد جداً عن التعصب ، وان الجهل أو الغرور أو الدس الاجنبى أو هذا كله مجتمعا هو الذى أثار فى فترات مختلفة من تاريخنا شيئاً من الحقد والريبة وروح العداء بين المسلمين وغير المسلمين .

غير ان الامل يخضوضر الآن فى نفوسنا ، ويملأ ثقة وايمانا بوحدة الشعوب وتآلفها . وذلك بعد أن برز الوعى الاجتماعى الى الميدان ، وبدت تباشير النضهة العربية على هذا النصف الاخير من هذا القرن ، وظهرت نتائجها الحلوة الباهرة بتحطيم امانى الاستعمار فى أكثر من معركة واحدة ، وارتفعت مطارقها لتهوى على رأس الاستعمار نفسه .. وان غداً لناظره قريب .

الاســـلام والمدنية :

تلك هى الانتصارات المعنوية التى سجلها الاسلام فى بداية عهده حتى أخذ بناؤه يتشامخ ، ورقعته تتسع ، فتراه بعد أن اطمأن الى الوضع الروحى والخلقى وحقق حلم الانسانية بالرخاء والســـلام والعدالة ، تفــرغ بعلمائه وفلاسفته وأدبائه وصناعته ومفكريه الى العمل المثمر المنتج ، تفرغ كل هؤلاء ليعطوا للانسانية حضارة من أزهى الحضارات ، وليتركوا للناس ميراثا غنيا بالفوائد حافلا بجلائل الفتوح .

الانتصارات العلمية والعملية :

وسنلقى الآن نظرة عجلى على انتصارات الاسلام العملية والعلمية فى سائر الميادين والتى تضفى على المجتمع الصفة الحضارية والقيمة المدنية .

لقـــد تعلم العرب اللاتينية والأسبانية ونقلوا عنهما ، حتى اذا اشـــتد عودهم وتمثلوا ما نقلوه ، بدأت شخصيتهم العلمية تظهر وتنمو ولم يلبثوا ، كما يقول غوســـتاف لوبون ، « أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب فانطلقوا من قيود التلمذة لليونان وأخذوا يختبرون مســـائل العلم ويجربونها . قال (دولامير) ، صاحب تاريخ علم الفلك : « اذا أعددت بين الاغريق راصدين أو ثلاثة ثم نظرت الى العرب ، أمكنك أن ترى بينهم عددا كبيرا من الرصاد » .

وأما فى الكيمياء فيقول (غوستاف لوبون) : « انك لاتجد عالما يونانيا استند فى مباحثه الى التجربة ، مع أنك تعـــد مئات من علماء العرب الذين قامت مباحثهم الكيماوية على التجربة ، فجابر بن حيان أستاذ لـ (لافوازيه) ، أبى الكيمياء الحديثة .

لقد عرف العرب الرياضيات فاخترعوا الجبر ونبقوه فى علم الهندسة ، وبرعوا فى الفلك فأقاموا المراصد فى دمشق وسمرقند والقـــاهرة وفارس

وطليطلة وقرطبة ، وتوصلوا الى نتائج علمية لم يتوصل اليها العلم فى أوروبا الا بعد ألف سنة ، ونبغ منهم فى هذا العلم أمثال البتانى وأبناء موسى بن شاكر وأبو الوفاء البيروتى .

● وعرفوا الفيزياء والميكانيك واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب وأتقنوا فن الدباغة وتسقية الفولاذ . وثبت علميا أنهم هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار .

● وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا تكتب على الرقوق ، وهى الجلود ، كان العرب يستعملون الورق وتزدهر فى بلادهم مصانعه وينتج عن ذلك نشاط فى حركة التدوين والتأليف والنقل يثرى المكتبات العامة والخاصة ويزود الثقافة العربية بزاد لا يفنى .

● واقتحم العرب البحر ، فخاضوا عبابه ، وأذلوا متونه بأساطيلهم ، واستخدموا فى الملاحة البوصلة فكانوا بذلك أول من استخدم هذا الاختراع الصينى فى أسفارهم .

● وبحثوا فى الجيولوجيا وتحولات الكرة الأرضية وأعلن ابن سينا أن هذه التحولات انما هى نتيجة تطورات بطيئة تمت بتعاقب العصور ،وجاء علم الأرض الحديث يثبت صحة هذه النظرية .

● وبحث علماء العرب فى النباتات واستخدموا الكثير منها فى أغراض طبية وأنشأوا لها الحدائق وزرعوا فيها أندرها وأجودها .

● وظهرت مواهبهم غنية خصبة فى الطب فأثروا بمؤلفاتهم المكتبة الغربية وظلت هذه المؤلفات مصدرا ومرجعا تعتمد عليه الجامعات الأوروبية فى تدريس هذه المادة ، ونبغ فيهم « أمثال الرازى » الذى بحث فى الحميات ذات البثور كالحصبة والجدرى وأمراض الاطفال وعلم التشريح ، و « على بن العباس» الذى كتب فى الطب النظرى والطب العملى ، والرئيس

« ابن سينا » الذى نقلت كتبه الى أكثر لغات العالم وظلت مرجعا عاما لأطباء العالم وأساسا للمباحث الطبية فى جامعات فرنسا وايطاليا طوال ستة قرون ، ولم ينقطع أطباء جامعة (مونبليه) عن شرح نظرياته وتدريس كتبه الا منذ أقل من قرن .

و « أبو القـاسم » القرطبى أشهر جراحى العرب الذى اخترع كثيرا من آلات الجراحة ورسمها فى كتبه والذى قال فيه العـالم الطبيعى الكبير (هاللر) : « كانت كتب أبى القاسم المصدر العام الذى استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر » .

● وعرف العرب علم الوقاية وأنشأوا المصحات وأقاموا المارستانات ، وبرعوا فى فن الصيدلة وتحضير العقاقير .

● ولم يهملوا الفنون فازدهرت الموسيقى والغناء فى بعض عهودهم ، وترقى فن العمارة وتميز ، بعد أن مر بأدوار تقليدية ، بطابع خاص ما تزال شواهده قائمة فى بلاد المجد المفقود ، فى قرطبة وأشبيلية والحمراء .

ما هو سبب الوهن :

هذه هى الدلالات التى يعرفها الناس ويتناقلها الرواة ، وتزدحم بهـا بطون الكتب وهى خير شاهد على أن الاسـلام قد أوجد من العرب ومن معتنقيه جميعا أمة تعرف رسالتها وتدرك طبيعتها وتؤدى واجبها .. واجبها الذى ينحصر فى كلمـة واحدة هى الدعوة الى الله والنهوض بالعلم وانى لو أفرطت فى ايراد الاماثيل واثبات الشواهد لأعيـانى ذلك وأجهدنى لأن الكتب حافلة بأخبار العظمة .. عظمة الخلق الاسـلامى ونبله ، فياضة بأنباء ذلك الطراز الرفيع من السـلوك الاجتماعى والفـردى الذى أتاح لدعاة الاسلام أن يسيطروا على معظم العالم القديم المعروف آنذاك ، وأن يجعلهم فى نظر الشعوب المغلوبة على أمرها هداة لا فاتحين ، ومهذبين لا منكلين .

ما الذى أوهن اذن هذه الدعوة ؟

من الذى جعل المسلمين فى آخر الركب الحضـــارى ، وأطمع كل ذى نزوة أو رغبة بهم ؟

هل فقد الاسلام حيويته ، أم أن المسلمين هم الذين فقدوا اخلاصهم ؟

أخبار الانحطاط :

من حق القارىء علينا ، أن نروى له أخبار الانحطاط فى المسلمين كما روينا أخبار البعث وذلك لكى تترابط حلقات البحث وتستكمل دراسته .

لقد بدأ البناء الاسلامى ينهار من اللبنة الأولى ، من لبنة الايمان التى سواها نبى الاســلام محمد صلى الله عليه وسلم فالفكرة الأولى محصورة بالمسلمين دون سواهم ، وهى فى العرف العقائدى الطريقة التى رآها الاسلام مثلى فى تنظيم علاقات البشرية أفرادا وجماعات بربهم واخلاصهم له .

والفكرة الثانية ، هى الجهر بهذه العقيدة بعــد فهمها روحا ومعنى ، وتطبيقها بالحسنى ، دون انتقاص من حق شريعة من الشرائع أو مجــافاة لعقيدة من العقائد أو اكراه زيد أو عمرو من الناس .

صور قاتمة :

غير أن المسلمين بعــد عصر الراشدين مبــاشرة بدأوا فى تحوير هذه المبادىء وتسخير بعض العواطف ، وهكذا تابعوا السير ينقضون كل عصر فكرة ، ويزلزلون فى كل حقبة عقيدة ويبدلون فى كل فترة رأيا .. حتى كان عصر الانحطاط وانصرف الناس عن الدين كعقائد مقرونة بالأعمال،وروحانية مقرونة بالبحث النظرى والوعى العلمى ، وتمسكوا به (أى بدينهم) كالفاظ واردة وتقاليد جامدة ، وتعصب فريق منهم تعصبا أعمى لهذه التقاليد ببلاهة وجمود لا يصدقهما العقل ، وأولع فريق آخر بالجدل العقيم والمنــاظرات

الفـارغة ، وحمى وطيس الآراء والمذاهب فيهم ، وبالرغم من أن أصحـاب المذاهب من الأوليـاء الصالحين فان أتباعهم فى خراسـان (فى آخر الدولة العباسية) كانوا يتطاحنون ، ويتذابحون وتنهر بينهم الدماء ، ولقد روى أن أهل قرية منهم من الشوافعـه قـد أفتوا أهل قرية أخرى عن بكرة أبيهم ، لا لأنهم من عبدة الأوثان بل لأنهم من الأحنـاف . كما روى عن فريق من هؤلاء الأحنـاف أقوال لاذعة بالنسبة لاخوانهم الشوافعة ، منها « ان من ارتحل الى مذهب الشافعى يعزر » .

ولقـد كان طبيعيا والحالة هذه أن تنتقل السلطـة والرياسة الى غير العرب من الفرس والمماليك والأتراك ، وذلك بعد أن انغمس أولئك فى بحر من الترف والنعيم وتاهوا فى خضم من المتع واللذات ، تحمر لذكراها وجنة التاريخ أسى وتدمع لها عينه لوعة .

وكان طبيعيا أيضـا أن تنحط الحياة الفكرية انحطاطا لا مثيل له فى تاريخ الأمم وأن تهمل العلوم العالية والمعـارف الكونية وأن يهدر الوقت ويضيع الجهد — ان كانت هناك جهد فى فلسفات نظرية عقيمة ودراسات بيزنطية فارغة — وأن تعمل كل هذه المعاول فى تهديم كيان المدنيـة التى زهت فى بغداد وازدهرت فى دمشق وأن تكون نهبا مقسما ومغنما يسيرا لكل طامع قوى .

درس من ملك رخج :

قال رتبيل ، ملك رخج وسجستان ، لرسل يزيد بن عبد الملك ، وقد جاؤوا اليـه يطـالبونه بالخراج ، وهو أول مظهر من مظـاهر قوة الدولة وسلطانها ، قال لهم : ما فعل قوم كانوا يأتون خماص البطون سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص ؟ فقالوا له : انقرضوا ، قال : أولئك أوفى منكم عهدا وأشد بأسـا وان كنتم أحسن منهم وجوها ، ثم منع الخراج عن أمراء المسلمين وخلفائهم .

عصور مظلمة :

ومرت بعد ذلك على المسلمين عصور كالحة السواد ، شديدة الظلمة ، اذا تتبع أخبارهم الدارس فانه لايصدق أنهم أحفاد أولئك الميـامين الذين سبق ذكرهم ، ويتردد فى أن ينسبهم الى تلك السلسلة من الأبطال أمثـال : أبى عبيدة وخالد وعمر وطارق وصلاح الدين .

لقد محت جحافل التتار والمغول معالم العظمة وسيماء البطولة والفداء فى تلك الأمة ، وكأنهم قـد استبدلوا الجبن بالاقدام ، والوهن بالشجاعة ، والذل بالأباء ، والخوف بالشمم .

الهوان العجيب :

روى لنا ابن الأثير حادثة أليمة علق عليها بقوله : « لقد بقيت عدةسنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم اليهـا رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى المسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذاك ؟ ولو قال قائل أن أهل العالم منذ خلق الله آدم لم يبتلوا بمثلها لـكان صـادقا فان التواريخ لم تتضمن ما يقـاربها ولا ما يدانيها .. »

أما هذه الحادثة فهى أن أحد التتر أخذ رجلا ولم يجد ما يقتله به ، فقال له ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح ، فوضع رأسه وبقى الى أن أتى التترى بسيف وقتله !!

المرأة الجبارة :

وحادثة أخرى وهى أن امرأة (أجل امرأة) من التتـار دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونهـا رجلا .. ويقول ابن الأثير : وأمثال ذلك كثيرة ويكفى أن نعلم أن الناس كانوا يتناقلون فيما بينهم أن من حدثك أن التتر انهزموا فلا تصدقه !

عصر الدولة العثمانية :

سأقف عند هــذا الحد من عرض الصور عن انحطاط المسلمين وذلك لأن الجميع يعرفون ماذا حدث بعد ذلك . يعرفون أن النكبات توالت وأن الغرب فتح عينيه على الشرق أو على الأصح فتح فاه .

ويعرفون أن الدولة العثمانيــة قــد أرخت جنــاحها المظلم على بلاد المسلمين ، وبدأ فى نهاية حكمها عهد أسود من المظالم والويلات والطغيان ، ويعرفون كيف الح الهزال على الرجل المريض ، وكيف طمع الغرب فى تركته الضخمة حتى اذا كانت الحرب الــكبرى اغتنمها الذئب المتربص فرصــة للانقضاض على هذه التركة ، ويعرفون كيف استأثرت بالميراث أقوى دول أوروبة (انكلترا وفرنسا ، والى جانبهما ايطاليا) ، ويعرفون كيف مدتهذه الدول الثلاث سلطانها تحت أسماء مختلفة من احتــلال واستعمار وانتداب ووصاية .

حاضر الاسلام :

بعد هذا العرض المفصل نرى ان الأمة الاسلامية — كطائفة ذات عقيدة وأسلوب خاص في الحياة — قد خضعت ، شــأن بقية الأمم والشعوب ، للقاعدة الاجتماعية التى تجعل تاريخ الأمة مهما امتدت أصوله ومهما تعاظمت فروعه ، يتبع منهجــا واحدا هو : الطفولة والشــباب والشيخوخة .. ثم الانبعاث ..

وأمنيتى أن أكون قد وفقت فى تصوير الأطوار الثلاثة الأولى لحيــاة المسلمين . واستخراج الحكمة من مكونات أحداثها لمــا فى ذلك من علاقة وطيدة بعقيدتهم ودينهم .

بقى الآن أن نتطلع الى الحاضر .. وأن نتشوف المستقبل .

ان حاضر الاسـلام زاخر كالبحر الخضم تصطخب على أديمه أمواج موارة وأن الشعوب الاسلامية اليوم تتفاعل فى رحابها قوى ناشئة ، وتتعاظم فى أرجائها طاقات فتية خلاقة ، صلب عودها واشتد سـاعدها ، نفضت عن أثوابها غبار الماضى وعن أعينها نعاس الظلام بعد أن امتدت أصابع النور من فجر النهضة توقظ فيها كوامن الحيوية وبواعث الانعتاق ، فى هذه الفورة التى يلحظها المعنيون بدقائق الأمور فى الشرق والغرب ، لابد لنا أن تقرر أن حركة الاسلام — ان صح التعبير — فى القرن العشرين غير حركته فى القرن الثامن ، فقد انتفت بينه وبين الدنيا فوارق الزمن وحواجز التقاليد .

ولم يعد أمامه منفسح من الوقت أو من المكان يهتم فيه بالدعوة الى الله .. كما كان يفعل فى حقبة شبابه لأن كلمة (الله) سبحانه وتعالى فقدت سحرها ولم يعد لها أثر فى أدمغة البشر ، ولأن فريقا منهم أصبح ينظر الى نفسه ويقول أين الاله ؟ ولان المسلمين أنفسهم لهم من دنياهم ما يشغلهم عن آخرتهم ولهم من ذاتهم ما يغل أيديهم عن أهدافهم .

غير أن هذه الأوضاع ، بتعقيـدها وصعوبتها ، وهمومها وأحزانها ، وكفرها والحادها ، لا تعنى ان الاسلام فقد مكانه فى الوجود .. وفقد عمله فى الخلق .

انقاذ وقيادة :

لا ، ان الاسلام ما دام حيا نابضاً فى جوانح رجاله ليحمل أمانته العظمى ورسالته الكبرى ، التى ظـل يحملها فى أطوار حياته الناهضـة والجامدة ، السعيدة والبائسة ، هذه الامانة هى انقاذ الانسان من حيوانيته ، والسمو به الى روحانية مترفعة ، هى قيادة الناس نحـو احترام ذاتهم لا بانـكار الاله ورفض هيمنته بل بمعرفة الانسان وادراك واجبه وطبيعته ، فان كل مانشاهده من تمكن الحقد بين البشر ، واستحكام البغضاء فيهم ، حتى لا تمر فترة على الارض دون أن يختضب اديمهـا بالدماء ، وتلفهـا عباءة كالحة من النـار

والبارود والدمار ، ان كل هذا يدل على ان الانسانية بحاجة الى الاسلام والى كل دين سماوى آخر .

الصراع المقدس :

ان الصراع القادم ليس بين الاسلام وبين التيارات المادية والنزعات الالحادية فحسب ، انه سيكون صراعاً مراً بين قوى الخير وقوى الشر ، بـ الروحانية بوداعتها وثقتها ، والمادية بجبروتها وجحودها ، ولن تقتصر نتائج هذا الصراع على مبدأ بعينه أو عقيدة بذاتها فتحكم عليها بالفشل أو تنعتها بالجمود ..

لا .. فان الالحاد ميكانيكى الطريقة ، حديث التفكير ، شديد البطش ، وهو لن يتيح لانفاس الروحانية أن تتردد فى صدور المجتمع ، ولن يترك لحيوية التدين أن يسرى مفعولها فى أوصال الناس .. اذ لا حياة للالحاد مع فكرة الله أصلا ، لأنه يعتبرها وهما نسجه عقل الانسان وخياله فى حالة من حالات الضعف والوهن .

اننا متفائلون :

وقد يتساءل البعض عن روح التفاؤل العجيب الذى أبديناه فى صدر هذه الناحية من البحث وقرنا فيه امكانية الانبعاث من جديد والجهاد من جديد لخلق مجتمع حر متين ؟

ان الذى أملى علينا التفاؤل ، هو فعالية الاسلام وتطوره ، وعدم مجافاته لوسائل البحث العلمى ، والاستدلال العقلى ، والطريقة المنطقية فى الكشف عن معميات العقل الانسانى ومجهولاته . والاسلام هو الدين الذى لا يقبل ايمان اتباعه بمبادئه ايماناً جافاً ، ولا يرضى أن يكون معتنقوه يحملونه اسماً لا حقيقة ، ونقلاً لا يقيناً . ومن مبادىء القرآن الكريم : « فاعلم انه لا اله الا الله » وهو حين لا يقبل من أبنائه الا علماً راسخاً على

قواعد المنطق بالوحدانية ، يدعوهم بالتالى الى العلم بكل صغيرة وكبيرة حولهم والاحاطة بكل مجهول لديهم ، كما يدعوهم الى البحث فى اعماق السماء وما يتلألأ فيها وفى ارجاء الارض وما يدب عليها فيقول لهم : « قل انظروا ماذا فى السموات والارض » ، وطبيعى جداً ان النظر المطلوب هنا انما هو النظر العلمى البحت المقرون بالسمو الخلقى .

فالاسلام المتفاعل ، المتطور ، المتسلح بالعلم والمعرفة ، جدير اذن أن يقف وجها لوجه مع دعاة المادية ومهرجى الالحاد . وهو بوجهه الصافى واديمه الناصع خليق ان يكشف سوءاتهم حين يقابلونه ، وخليق بأن يظهر لهم مواطن الضعف فيهم ، ومواطن الانحلال فى طريقتهم .. اد لا يدحر الظلام الا النور ولا يذهب السواد الا البياض .

الاسلام والنظريات المادية :

ان تاريخ الدعوات المادية يدلنا على أنه كان وليد أزمات خانقة لبعض الطوائف التى تمتهن الاستغلال .. وتطلب أى ربح .. الا الربح الحلال .. ومن منا لا يعلم ان الصهيونية حين فكر علماؤها أن يسيطروا على الغرب ويهيمنوا عليه بنظرياتهم حفظاً لانفسهم من العصبية الروحية التى كانت تسيطر على دول أوروبا،وضعوا بذور النهضة العلمية المادية البحتة ، وشرعوا بمحاربة العقيدة الروحية محاربة لا هوادة فيها ولا لين سواء بايديهم أو بأيدى عملائهم أو بوسائل الاغراء والتمجيد لكيان الملحدين . وليس أدل على ذلك من تلك المؤلفات التى ظهرت فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر طافحة ببذور الالحاد تدسها فى كل ناحية ، مليئة بسموم المادية تنفثها فى كل مكان . على أن القرن العشرين ما كاد يطل حتى أصبحت النظرية المادية تسيطر على العالم من كل جانب ، وحتى امتدت أصابعها الى أوساط التشريع ودست أنفها فى المذاهب الفلسفية الحديثة فسمعنا بـ (ماركس) و (انجلز) وسواهما كما سمعنا بالشيوعية والفاشية والنازية وغيرها من المذاهب

الاشتراكية والتى سيطرت على الجامعات وكافة الاوساط العلمية واستطاعت أن تخضع لمنطقها بعض الاوساط الدينية .. وحين اشتدت الصلة بين الشرق والغرب وأخذ طلابنا يتوافدون للدراسة لم يستطيعوا أن يتبينوا تلك النوايا الخفية التى دسها علماء المادة فى الغرب فى معطيات الفكر فنقلوها الى الشرق بقضها وقضيضها وخيرها وشرها ، نقلوها وهم يتيهون فخراً بالمظاهر الجديدة والأفكار الجديدة .. ظنوا أنهم باذاعتهم اياها انما يدللون على مبلغ علمهم وسعة ثقافتهم .. وفاتهم ان الافكار التى بهرتهم جدتها ، وخلبتهم جرأتها ، وسحرهم اسم مبتكرها ، وأعماهم حب التقليد عن التبصر والتفكير ، أجل فاتهم ان هذه الافكار ليس فيها من الجديد الا اسمها .. أما نتائجها .. وما تضمنه للمجتمع من الرخاء والسعادة .. فأمور سبقها اليها الاسلام وقررها منذ خمسة عشر قرناً تقريباً .

فقبل ان يكون ماركس وانجلز وسواهما من فلاسفة الاشتراكية كان الاسلام ابا للاشتراكية ، وكان محمد بن عبدالله امامها الاول .

الاشتراكيون أنت امامهم لولا دعاوى القوم والغــلواء
ولو ان انساناً تخيّر ملة ما اختــار الا دينك الفقــراء
داويت متئداً وداووا طفرة واخف من بعض الدواء الداء

فالضمانات الاقتصادية التى جاء بها الاسلام ، وبوسعها أن تغنى المجتمع عن المبادىء الاشتراكية وسواها من المبادىء ، كثيرة أهمها : الزكاة والوقف وقانون الوراثة وتحريم الاسراف والتبذير والفائدة والربا ومبدأ المصالح المرسلة ومبدأ شيوع الموارد العامة ومبدأ تحريم الترف ومبدأ تحريم الكنز وفى هذه الضمانات تظهر الخطوط الاشـــتراكية العملية التى يمــكن لنظام الاسلام الاقتصادى بها أن يتوضح وان يستقر .

أما من الناحية الاجتماعية فبوسع الاســلام أيضاً ان يحقــق العدالة الاجتماعية وأن يهدم حواجز الطبقات وأن يقيم اركان المجتمع الفاضل .

العمال بنظر الاسلام :

ولئن كانت النظم الاجتماعية والاشتراكية منها بوجه خاص تتغنى فى عصرنا الحاضر بما حققته للمواطن من ضمانات وللعامل من حماية ، فانظروا الى أى حد يقدم الاسلام هذه الضمانات والى أى مدى يمجد الطبقة الكادحة فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « ما كسب رجل كسباً أطيب من عمل يده » ؛ وروى انه ذكر للرسول مرة رجل كثير العبادة ولكنه لا يعمل فقال رسول الله : « من يقوم به ؟ » قالوا : « أخوه » ، قال النبى عندئذ : « أخوه أعبد منه » ، ثم قال : ان الله يحب العبد المحترف ؛ ومر النبى يوماً على رجل فرأى أصحاب الرسول من جلد هذا الرجل ونشاطه فى الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه ؛ قالوا : « يارسول الله ، لو كان هذا فى سبيل الله » ، فقال الرسول : « ان كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه فيعفها فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان » ؛ وورد ان الرسول عليه السلام قبل يداً ورمت من كثرة العمل ثم قال : « تلك يد يحبها الله ورسوله » ؛ كما ورد عنه قوله : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » .

مثل رمزى :

فأى تمجيد للعمل ، يفوق هذا التمجيد ؟ ألا يوازى هذا على الاقل التكريم الذى تريده الاشتراكية للعمل والعمال أما العامل فقد حماه الاسلام وأوصى بالمحافظة على حقه وحذر من انتقاصه والافتئات عليه ؛ وضرب لذلك مثلا فيه كثير من البساطة ولكنه رائع التلقين ، فقد حكى ان رجالا آواهم المبيت الى غار فانحدرت صخرة من الجبل فسدته عليهم ، فدعا كل منهم ربه باحسن عمل قدمه فى حياته كى ينقذه من ورطته ، فكان الاول براً بوالديه ، والثانى حفيظاً على الاعراض ، وتوجه كلاهما الى الله بصالح عمله فانفرجت الصخرة قليلا عن فم الكهف ، غير أن ذلك لم يمكنهم من الخروج

حتى قال الثالث : « اللهم انى استأجرت اجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له فثمّرت أجره حتى كثرت منه الاموال فجاءنى بعد حين فقال لى : ياعبد الله أد لى اجرى ، فقلت له : كل ما ترى من الابل والبقر والغنم فهو من أجرك ، فقال : يا عبدالله لا تستهزىء بى ، فقلت : انى لا أستهزىء بك ، فأخذه كله فاستاقه أمامه فلم يترك منه شيئا . ثم قال : اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون » .

هذه القصة الرمزية درس رائع فى تقديس حق العامل ، فانت فى نظر الاسلام حين تبر العامل فكأنك تبر والديك وتحمى عرضك ، وانت فى نظر الاسلام حين تحفظ للعامل حقه تؤدى لله عبادة ، عبادة ليس السجود والركوع قوامها ، ولا الذكر والاوراد ، وانما قوامها صيانة الحقوق والعمل بروح الدين واتباع أوامر الله .

الضمان الاجتماعى :

ثم ما هو موقف الاسلام من الضمان الاجتماعى الذى يشكل ركيزة من ركائز الاشتراكية الحديثة ؟ والى القارىء بعض الأمثلة الاسلامية فى هذا السبيل : سيق الى عمر بن الخطاب فى عام الرمادة ، وهو عام مجاعة ، اعرابى اتهم بالسرقة . ولما سئل الاعرابى عن التهمة اعترف أن الدافع الذى دفعه اليها قاهر غلاب ، فهو فقير يعيش من عرق جبينه وجنى يديه ، وعبثاً حاول ايجاد عمل لنفسه يقيه وأطفاله شر الجوع فلم يفلح . فمال ابن الخطاب على الصحابة يسألهم رأيهم ، فاجمعوا على تطبيق الحد بحقه ، ولكن عمر ، وهو عبقرية تشريعية خالدة ، ادرك بثاقب بصره الصلة الوثيقة بين الحاجة الملحة والجريمة ، وانتبه الى وظيفة الدولة الاساسية ووجوب تأمينها العمل للجميع واعتبر اغفالها لمثل هذا لاعرابى الفقير تقصيراً فى القيام بواجباتها والتزاماتها نحو كل مواطن فالتفت الى الاعرابى وفى عينيه دمعة أكبر من السماح وأنبل ،

وقال له : اذهب ياأخا العرب ولا تعد لمثلها . ثم التفت الى أصحابه وقال لهم : اجروا عليه من بيت المال الى أن يجد عملا .

ولن أسرد للقارىء قصة هذا الخليفة العظيم مع الارملة العجوز ، فكل قارىء يعرفها ويعرف دلالتها الاجتماعية ، كما يعرف بلا شك قصته مع ذلك الشيخ الذمى الذى رآه يتسول عند باب المسجد فتقدم اليه معتذراً وقال له : ماأنصفناك ! أخذنا منك الجزية شابا وضيعناك شيخا . ثم أمر بأن يرتب له من بيت المال ما يكفيه فى شيخوخته ويجنبه ذل السؤال .

من هذه الأمثلة ، يتضح لنا أن الاسلام يعرف أنواع الضمان التى شاعت فى النظم الحديثة كضمان المرض والعجز وضمان البطالة .

أما الاسلام السياسى فانه يعطى العالم كله أماثيل رائعة فى النبل والتسامى والأخوة والمساواة والدفاع عن الحريات وحب السلام والديمقراطية الصحيحة .

كيف تتم عملية الانبعاث :

السؤال الآن : ما العمل ؟ كيف تكون خطة الانبعاث ومنهاجها ؟ وما هو الواجب الملقى على عاتق الاسلام كدين سماوى ليحفظ القيم الانسانية ويصونها من عبث العابثين ومكر الماكرين ؟ ومن هو الذى يحمل القدر الأعظم من مسئولية هذه الرسالة الكبرى ؟

ان الأصابع كلها تشير الى أن المتهم هو الدولة والفرد . وهذان المتهمان يحملان مسئولية الضياع وعليهما تتوقف نتيجة الانبعاث .

أما الدولة أو المجتمع فعليها أن تحقق العدالة بمفهومها المطلق ، وان تطبق الحق وأن تنهج نهجا سلميا بناء .. وهذه المبادىء وحدها اذ كانت محمية باسم الدولة كفيلة بان تضبط المجتمع فلا يتحلل ولا يتدنى ولا يتباغض ولا يتباين ولا تأخذه الافتراءات أو الأكاذيب ، ولا تؤثر فيه بسهولة

ويسر دعوات الهدم المغلف بالغيرة على البائسين والكادحين والفقراء ، ولا تؤثر فيه افترآت الحرية الفكرية والانطلاق العقلى الذى ليس وراءه الا نسف اليقين بالخير والثواب ؛ وتدمير الايمان بالحق والفضيلة ... هذا هو واجب الدولة .

واجب المعبد والمعهد والبيت :

أما واجب الفرد ومسئوليته الكبرى فى الانبعاث فهى عملية ذاتية .

ومسئوليته العملية تقوم على ثلاث دعائم : المعبد والمعهد والبيت ، لان المعبد ، ان خلص عمله وتنزهت رسالته ، وادى فريضة الفكر كاملة غير منقوصة ، واستغنى عن شوائب القرون الوسطى وقشور عصور الظلام وتقاليد الجهل والسطحية .

والمعهد ، ان رسمت أهدافه ، وخططت مناهجه ، ورتبت علومه ، وهذبت فصوله .

والبيت ، ان آرسيت دعائسه ، وأقيمت عمده ، وكان فيه الوالد الصالح والوالدة الفاضلة .

كل هذه الشروط ، لو تيسر تحقيقها ولو وجد الاسلام المصفى طريقه اليها ، وقيض لها التفاعل مع أسسه ومبادئه ، لو كان ذلك لضمت أرضنا أليق الناس بحمل رسالة السماء الى الأرض وأحفظهم لها وأشدهم تفانيا فى صيانتها وتقديسها .

بقى أن نتكلم عن مسئولية الفرد الذاتية والتى تنحصر فى شعور كل منا بأنه قيم على معان نبيلة وأهداف سامية ، وانه جندى من جنود الخالق ، وليس الشعور فقط بل العمل الجدى المثمر فى احقاق الحق والأمر بالمعروف ، ولقد كان القرآن الكريم صريحا فى هذه الناحية فأوصى المؤمنين

جميعا أن يكونوا أمة من جنود الحق فقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

المشكاة الواحدة :

هذه هى صفحة المستقبل ان أردنا مستقبلا زاهرا يتيه على الماضى المجيد ، وذلك هو واجب الاسلام .. كما انه واجب كل الاديان السماوية وعلى الاخص المسيحية ، فان الحق والفضيلة لا يتبدلان ولو تبدلت زاوية النظر اليهما . وان الوقت الذى تفرق فيه الاديان بين أبنائها قد مضى الى غير رجعة وأصبح أجهل الناس يعلم ان الاديان السماوية انما انبثقت من مشكاة واحدة فجميعها من السماء وكلها من وحى الله ، ووحى الله لا يتغير ولا يتبدل .

انه ما جاء دين بعد دين الا ليزيد فى هيكل الهداية الربانية ركناً من الاركان أو يضيف الى قانونه الازلى مادة من المواد ، أو يخصص عاماً أو يعمم خاصاً ، أو يجدد دارساً أو يوضح مبهماً ، أو لينسخ حكما قد انتهى اجله ولم يعد صالحاً للحياة . يقول السيد المسيح : « لا تظنوا انى أتيت لاحل الناموس والانبياء انى لم آت لاحل لكن لاكمل » ، ويقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء أخوة أبوهم واحد والأمهات مختلفات » ، ويقول الله تعالى عن القرآن الكريم : انه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل، ويقول: « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم » .

متى ؟

ان محنة الانسانية كبرى . وعلى الاديان السماوية عامة أن تبدأ جهادها ، وعلى الاسلام خاصة ان يباشر فى اعادة البناء ، بناء الطود الذى ما زال يراود

أخيلتنا ، ويداعب ظله أمانينا ، وتلك هى الخطوة الاولى نحو السعادة التى تنشدها الدول ، والسـلام الذى تحار فى ايجـاده ، واللبنـة الاولى التى يتسامى بعدها هيكل شامخ ، من المحبة الانسانية والتفاهم البشرى والسعادة العالمية .

الحريات العامة فى الإسلام

* ان أول حرية نادى بها الاسلام هى حرية الانسان الشخصية ، على هذا الأساس منح الاسلام العبيد حرياتهم ، فأوجد للسيد حدودا لا يتعداها فى معاملة رقيقة .
* حطم الاسلام أغلال الانسان وانبرى يعطيه حرياته ويدافع عنها بعزم وبسالة .
* ان الجهل والغرور والدس الأجنبى هو الذى أثار الحقد والريبة فى فترات من الزمن بين المسلمين والمسيحيين والتاريخ جدير بأن يعطينا العبرة والموعظة فى هذا السبيل .

جاء الاسلام فى عصر كانت البشرية فيه تتردى فى مهاوى الجهل والتأخر ، وتقاسى أشد المحن ، وكانت المجتمعات القبلية لا تعرف معنى للحرية بمفاهيمها الحديثة اللهم الا حرية الغزو والقتل والسبى ، فأراد الاسلام ان ينظم حياة الفرد لانه كان يعلم انه متى نظّم الفرد استطاعت الأمة أن تقيم دولة وان تعطى حضارة وان تدفع ركب الانسانية الى الامام .

مشكلة الرق :

وأول مشكلة مزمنة من مشاكل العبودية جابهها الاسلام ورأى انها توقف التطور الاجتماعى وتحول دون رقى المجتمعات هى مشكلة الرق .

فالانسان : هذه الثروة البشرية الكثيرة الطاقات المتنوعة النشاطات يجب أن يرتفع عن مستوى السلعة ، السلعة التافهة التى تباع وتشرى فتنحط ثمناً وتسمو ؛ بقدر ما تقدم للمشترى من منافع .

والانسان : هذا المخلوق الراقى المهيأ للسيطرة على قوى الطبيعة وتسخيرها لخيره يجب أن يتحرر من قيوده ، ويجب أن تتحرر ارادته ويتحرر جسده ، ولكن كيف يستطيع الاسلام أن يعالج مرضاً اجتماعياً مزمناً ينهش سمعة الانسان منذ آلاف الأجيال ؟ كيف يستطيع أن يهيىء الجو لتحرير الرقيق واعادته انسانا سويا له ما للأحرار من حقوق وعليه ما على الأحرار من واجبات ؟

لقد سلك الاسلام لتحقيق هذه الغاية وبلوغ ذلك الهدف طريق التطور الهادىء الفاعل لا طريق الطفرة الهادمة المنفرة ، فهو لا يستطيع أن يلغى الرق لأول وهلة الغاء تاما ، ولكنه يستطيع أن يرفع المستوى الاجتماعى للأمة حتى اذا بلغت مرحلة من السمو النفسى ، انهار نظام الرق من تلقاء نفسه ، وتصدعت اركانه وقضى تماماً عليه .

اذن فأول حرية نادى بها الاسلام هى حرية الانسان الشخصية ؛ لقد أوصى بالرقيق خيرا وحرم استرقاق المؤمن ومنح الرقيق حق الحياة بعد أن كان يحق للسيد أن يقتل عبده متى شاء ، وجعل عقوبة قاتل العبد القتل لان المسلمين كما ورد فى الحديث الشريف (تتكافأ دماؤهم) (ومن قتل عبداً قتلناه) .

وشدد الاسلام على المساواة ، فقال عز وجل فى كتابه الكريم : (انما المؤمنون اخوة) ؛ وأكد الرسول هذه المساواة فقال عليه الصلاة والسلام : (الخلق كلهم عيال الله) (والناس سواسية كأسنان المشط) (ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى) الى آخر ما هنالك من آيات وأحاديث غايتها ان تركز فى الذهن الانسانى ان الناس من طينة واحدة ، وانهم جميعهم لآدم،

وان آدم من تراب ، وانهم لا يتفاضلون الا بالعمل وان الله لم يخلق عباده فئتين : فئة من العبيد ، وفئة من الاحرار وانما خلقهم جميعهم أحراراً كما أعلن ذلك عمر بن الخطاب بكلمته المشهورة يوم قال : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟)

ثم منح الاسلام الرقيق الحصانة الجسدية فمنع ضرب العبد وتشويهه . ومنحه الحصانة العائلية فمنع السيد من التفريق بين العبد وزوجته .

ولم يكتف الاسلام بذلك بل تعداه الى أبعد من هذا فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يشترى العبيد ليعتقهم وكان يساعد العبيد المملوكين لغيره على شراء أنفسهم وذلك ليضرب للمسلمين مثلا حسناً يحتذونه ويقتدون به وكان فوق ذلك يرغبهم بالعتق ويذكر لهم عظيم ثوابه ، فاذا مرض لاحدهم مريض أو حل به بلاء أو تطيّر من أمر أمره بالعتق ، وكان يقول : (ايما رجل اعتق امرءاً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار) ، وكان يقول أيضاً (ايما رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها كان له أجران) .

ولم يقف الاسلام عند هذا الحد ، حد الترغيب فى العتق ، وانما استوجبه فى حالات معينة فهو كفارة عن القتل الخطأ وعن الظهار واليمين وأوجب فى موارد الزكاة سهما مخصوصا يرصد لتحرير العبيد .

وحاول الاسلام فوق ذلك أن يقوى الروح المعنوية عند الارقاء فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن مخاطبتهم (بعبد وأمة) وأوصى بمعاملتهم معاملة كريمة ثم قال (ان اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم) .

وقد اثرت وصايا الرسول وتعاليمه فى أصحابه وفى جمهور المسلمين فكثر العتق واستقامت معاملة الرقيق ورأينا عمر بن الخطاب ، وهو من هو ،

يتناوب ركوب البعير هو وغلامه حتى وصل بيت المقـدس وكانت النـوبة للغلام فدخلها خليفة المسلمين راجلاً ودخلها الغلام راكباً .

رأى مستشرق فى الرق :

لا نحسب ان نظاماً اجتماعياً سبق الاسلام أو جاء بعده الى أن الغى الرق رسمياً استطاع ان يحمى الرقيق وان ينتزع له حقوقه كانسان وأن يكفل له المساواة مع الاحرار الا الدين الاسلامى وانه ليروق لنا بهذه المناسبة أن نذكر هنا كلمة منصفة للمستشرق «سنوك» قال فيها (ان انتقال الارقاء الى أيدى المسلمين يعد من نعم الله عليهم ، والأوربيون الذين يتصورون الأرقاء فى الاسلام كأرقاء الزنوج فى أمريكا مخطئون جدا ، فأرقاء الاسلام يشبهون العمال الاوروبيين وأكثرهم يستردون حريتهم بعد زمن قصير من دخولهم فى ملك أسيادهم ، ولعل الجارية التى أصبحت زوجا لمسلم وأما لأولاده ، والرقيق المتوحش الذى تهذب وتعلم ، وظهرت انسانيته فى حجـر الاسلام أكبر حجة على عدل المسلمين) . ثم استطرد المستشرق يقول : « ان الغاء الرق الذى أمر به الانكليز عمل انسانى لا شك فيه ولكنه لا يفيد أولئك الافريقيين الذين يعيشون فى ادغالهم انكد عيش ويسامون اسوأ خطة ولو استرقهم المسلمون لنقلوهم من جحيم لايطاق الى دنيا يغمرها النور وتسودها الفضيلة » .

التحرير لم يتم فعلا :

لقد مضى على ظهور الاسلام أكثر من ثلاثة عشر قرناً وأتيح للانسانية خلال هذا الزمن الطويل أن تتطور وتتدرج فى معارج الرقى والحضـارة وقدر لها أن تحقق حلما من أحلامها بالغاء الرق وكان ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر حين اجتمع فى برلين عام ١٨٨٥ عدد كبير من الدول وأبرموا معـاهدة تعهدت فيهـا الدول الموقعة عليها بمنع تجارة الرقيق فى العالم

ولكن نظام الرق الذى ألغى رسمياً ؛ هذا النظام الجائر القذر ما زال مع الأسف قائما . انه ما زال يعيش فى عصرنا هذا عصر الذرة بوجهيه المخزيين : الرق الجسدى والرق المعنوى ، ففى افريقيا السوداء ما زال الانسان يباع ويشرى ؛ وفى الامم الضعيفة المستضعفة ما فتىء الانسان عبداً للقوى يستغله ويحرمه حقوق الحياة وينتزع من بين يديه ثروة بلاده وخيرات أرضه ، فاذا ثار من أجل حريته أو طالب بهذه الحرية سلّط عليه القوى الغادر الحديد والنار وزبانية التخريب والدمار ، قصد اذلاله وخنق ارادته واستغلال جهده وعطاء بلاده .

حرية الفكر والعقيدة :

لم يكد الاسلام يطلق سراح الانسان ويحطم أغلاله التى أدمت يديه حتى انبرى يهبه حرياته كلها ويدافع ببسالة عن هذه الحريات كلما هددت . وثانى هذه الحريات التى كانت من عطاء الاسلام هى حرية الفكر والمعتقد .

فالاسلام لا يرفض طرق التفكير الخاصة بل يدعو الى احتكاك الآراء وسعة الاطلاع وتنوع الثقافات ، وهو يعتبر الفكر ارثا انسانيا مشتركا بين الأمم وهذا ما جعل العرب يقتبسون دون ما تحرج من حضارات الأمم السالفة والمعاصرة وثقافاتها المتنوعة ما يجدونه صالحا لبناء مجتمعهم الجديد وأكبر شاهد على حرية الفكر فى الاسلام تعدد المذاهب السياسية والفرق الدينية ومدارس الاجتهاد ؛ ومبدأ الشورى هذا المبدأ الذى أمر به القرآن الكريم « وأمرهم شورى بينهم » كان ركيزة قوية من ركائز الدولة الاسلامية ومظهراً من مظاهر ديموقراطيتها اذ كان للرأى الاصلح دائما القدح المعلى والكلمة النافذة .

لا اكراه فى الدين :

أما حرية المعتقد فقد صانها الاسلام الا ما كان منها منافيا لكرامة الانسان وكرامة العقل ؛ ومن أجل ذلك حارب الوثنية حربا لا هوادة فيها ولا

لين حتى استطاع ان يهزمها ويقلص عن الجزيرة العربية ظلها لانها تعبير عن جهل الانسان والغاء لعقله . فاية قيمة لعقل يسجد أمام صنم لا يملك نفعا ولا ضراً ؟ واية كرامة لانسان يعفّر جبينه على اقدام وثن جامد تبول عليه الثعالب ولا تخشاه ؟ ومن أجل ذلك أتاح للنصرانية واليهودية أن تعيشا في ظل دستوره الخالد (لا اكراه فى الدين) هذا الشعار الذهبى الذى حمله محمد عليه السلام ودعا على أساسه اليهود والنصارى الى دينه فان قبلوه دخلوا فى الاسلام ، وان رفضوه لم يكرههم على شىء ؛ وانما سألهم أن يعطوا الجزية وهى ثمن حماية المسلمين لهم ودفاعهم عنهم فى الحروب . ولعل الرسول العربى الكريم خشى أن يشتط اتباعه فيما بعد وأن تسول لهم أنفسهم التضييق على معتنقى الأديان الأخرى فنهى اتباعه عن ايذاء الذميين بقوله : (من آذى ذمياً فقد آذانى) .

وتتفرع عن حرية المعتقد حرية الممارسة للشعائر الدينية وقد كفل الاسلام هذه أيضا اذ أباح للنصارى أن يقيموا الكنائس ويظهروا الصلبان ويسيروا بها فى المواكب .

وليس أدل من بعد الاسلام عن روح التعصب واعطائه الحرة الكاملة لجميع أصحاب الأديان الأخرى — قول المستشرق — آدم ميتز : « وقد قلد ديوان جيش المسلمين لرجل نصرانى مرتين فى أثناء القرن الثالث » والمعلوم : أن القرن الثالث هو العصر الذهبى بالنسبة لانتصار الاسلام .

أفلا يعتبر تساهل المسلمين وافساح المجال لغيرهم كى يتمرس بأعباء الحكم والادارة ألا يعتبر ذلك دليلا على أن الاسلام لم يصنف الناس على أساس معتقداتهم وانما على أساس كفاءاتهم .

لا هوادة مع المتآمرين :

غير أن موقف المسلمين يختلف بالنسبة لليهود لا لليهودية ، لأن اليهود ناوأوا الاسلام عند نشأته وتآمروا على الرسول وحاربوه فى خيبر وتكتلوا

ضد دعوته فكان من الطبيعى أن يقف المسلمون منهم موقفا معاديا ردا على موقفهم الذى تميز بحبك الدسائس والمحاولات الكثيرة للقضاء على الدعوة الجديدة وخنقها فى مهدها .

ولعل من أبرز الأمثلة على تسامح الاسلام الدينى ذلك السلوك العملى الذى سلكه خلفاؤهم وخاصة الخليفة الثانى الذى دخل بيت المقدس وزار كنيسة القيامة ولما حان وقت الصلاة لم يجد مكانا يؤدى الفريضة فيه الا الفسحة الواقعة أمام مدخل الكنيسة ، وعندما قيل له ما معناه لم لا تصلى داخل الكنيسة والله تعالى يقول : « فأينما تولوا فثم وجه الله » أجاب : أنه كان باستطاعته **أن** يصلى داخل الكنيسة ولكنه خشى أن فعل أن يأتى يوم يطالب فيه المسلمون بالمكان الذى صلى فيه عمر .

هنات عابرة :

قد يقول قائل أن بعض العصور الاسلامية فرضت على غير المسلمين فى بعض البلاد قيودا تغل حرية المعتقد وتحد منها . وعلى هـــذا نجيب بأن الاســـلام فى صفائه بعيد كل البعد عن جميع ما يمس الحرية العقائدية واذا كانت بعض الظروف العابرة ومقتضيات السياسة الرعناء قد أعطت فى بعض الأحيان الدليل الحى على ذلك فانه يجب أن لا يغرب عن البال ان الاسلام لا يعنى أبدا المسلمين وان بعض التصرفات الشخصية كانت وليدة أهواء ، الاسلام منها براء ، وانا لنذكر بكثير من الأسف أن الجهل والغرور أو الدس الأجنبى أو هذا كله مجتمعا أثار شيئا من الحقد والريبة فى فترات من الزمن مختلفة بين المسيحيين ، فما ينبغى لنا ونحن نلمح الى هذه الحقيقة الا أن نلتمس فيها الموعظة والعبرة فان التاريخ بما يعرض علينا من ذكريات الشرور والمآسى لجدير بأن يهذبنا كما تهذبنا المفاخر .

ولن ننسى أن نذكر فى هذه المناسبة بموقف ملوك فرنسا فى القرن السابع عشر من خصومهم الدينيين . أن مذابح (ســانت بارتيلمى) بين

الكاثوليك والبروتستانت لم يعرف فى تاريخنا الطويل ما يشبهها هولا . ولقد ذكر الأستاذ « رينو » أن فرنسا عام ١٦٨٥ أصدرت أمرا بتحريم الديانة البروتستانتية وهدم كنائسها ونفى رؤسائها . وفى عام ١٧١٥ اعتبرت فرنسا فرنسا كل زواج لا يعقد على الطريقة الكاثوليكية زواجا غير شرعى .

فهل يعنى كل هذا أن تصرف الملوك والحكام يمكن أن يكون حجة على عدم تسامح المسيحية ؟ وهل يمكن أن تتهم الدين المسيحى على ضوء هذه الوقائع التاريخية ؟ ان المنطق السليم يجيب بملء فيه كلا وألف مرة كلا .

حرية الرأى والقول :

(قل الحق ولو على نفسك) ذلك ما نادى به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ، وجاء أصحابه من بعده يطبقونه تطبيقا نموذجيا رائعا ، حتى أصبحت حرية الرأى والقول مفخرة من مفاخر الدين الاسلامى ومبدأ أساسيا من المبادىء التى ترتكز عليها الدولة الاسلامية الصحيحة ، فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يبايع خليفة للمسلمين بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، فيعتلى المنبر ويخطب الناس قائلا (لقد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم) .

ألا يعتبر هذا القول البليغ الرائع وهذا الأسلوب فى التنبيه والتشجيع على النقد مدرسة لحرية القول قل نظيرها فى التاريخ .

موقف عمرى :

وهذا ابن الخطاب يدعو الناس على طريقة سلفه الصديق الى معونته ان أحسن والى تقويمه ان اعوج فينهض أعرابى من بين الصفوف ويتصدى للخليفة قائلا : « والله لو رأيناك فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » فينشرح

لذلك صـــدر عمر ويشكر الله الذى أوجـــد فى رعيته من يستطيع تقـــويم اعوجاجه اذا اعوج .

موقف آخر :

وهذا ابن الخطاب أيضا يرتقى المنبر ثانية ويخطب الناس قائلا : « أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ، فيقف اعرابى جلف ليقول للخليفة الذى ارتعدت من رهبته فرائص كسرى وزلزلت من هيبته تيجان القياصرة ، يقف ليقول له بكل تحد وجرأة : لا سمعا ولا طاعة ياعمر ، ويبتسم الخليفة العظيم ، فان وراء جرأة الاعرابى تهمـــة بلا ريب ، فليبسط الاعرابى اللثـــام عنها وليقلها بصراحة ، ويسأله عمر : ولم يا أخا العرب :

ويتهم الاعرابى خليفة المسلمين ، يتهمه باستغلال مركزه ونفوذه كخليفة . فلقد وزع على المجاهدين ماغنموه فى احدى غزواتهم من حبرات يمانية أصاب كل واحد منهم واحدة منها ، وقد حاول الاعرابى أن يجعل منها ثوبا له فلم تكفه ، وها هو يرى الخليفة يرفل بثوب من تلك الحبرات والخليفة أطول منه وأكثر بسطة فى الجسم .. اذن من اين لك هـــذا ؟ وترجم العيـــون الغضبى الاعرابى الذى يتهم امير المؤمنين بشواظ من نار وتمد الالسنة اعناقها تشتهى ان تنهشه ، ولكن الخليفة العظيم يبتسم ثانيـــة ويسرى عنـــه ويلتفت الى ابنه عبد الله قائلا : (أجبـــه يا عبد الله) . ويقف ابن الخليفة ليشرح للاعرابى المتهم كيف تنازل عن حبرته لوالده وكيف صنع الوالد من الحبرتين معا ثوبا له . ويقتنع الاعرابى ويبدد البرهان شكوكه فيحنى رأسه مذعنا ويقـــول : الآن سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين .

موقف ثالث :

وهذا ابن الخطاب ثالثة يسأل سلمان : أملك انا أم خليفة ؟ فلا يرهب سلمان أمير المؤمنين ولا يماريه ولا يصانعه بل ويقول له بصراحة ما بعدها

صراحة : (أن أنت جبيت من أرض المسلمين درهمـا أو اقل أو أكثـر ثم وضعته فى غير حقه ، فانت ملك لا خليفة) .

النبى وحرية الرأى :

وهذا رسول الله يسير الى احدى غزواته فينزل بجيشه فى موقع غير لائق من الناحية الاستراتيجية فيسأله عمر بما معناه : أبوحى ننزل فى هـذا المكان أم باجتهاد ؟ فيجيبه الرسول عليه السلام انه انما اختار هـذا المكان بناء على اجتهاد شخصي لا دخل فيه للوحى ، فيعترض الصحابى الجرىء على هذا الاختيار وينصح بالعدول عنه ، فيمتثل رسول الله ويبدل المكان .

وهكذا نرى ان حرية الرأى هى احـدى الثمرات التى انتجهـا الدين الجديد الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وانـنـا لا نعرف حـركة عقائدية كانت او سياسية فى التاريخ القديم او الحديث اعطت حرية الرأى مثل تلك المكانة التى أحلها فيهاالاسلام . ولقد كان من نتيجة هذه الحرية ، ان تقدمت العلوم وازدهرت المدنية وسمقت فروع الدولة الاسلامية وامتدت ظلالها ، وقدر للمواهب ان تتفتح فى ظل هذه الدولة وان تعطى عطاءها السمح الخير .

الحرية المقيدة :

ولكن الاسـلام لم يذهب بطبيعة الحال فى موقفه من حـرية الرأى مذهبا ايجابيا الى ابعد حدود الايجابية بحيث يبيح للرأى الطالح الفاسـد المفسد ان ينتشر وان يتسلل الى افهام الناس واذهان العـامة ، فذلك ما لا يتلاءم وفلسفة الحكم وبالتالى لا يتلاءم مع المصلحة العامة ، هذه المصلحة التى ترى بعض المذاهب الاجتماعية الحديثة ان يضحى فى سبيلها بكثير من الآراء .

لقد كان الاسلام يدرك تمام الادراك ان المجتمع الاسلامى ككل مجتمع، لن يخلو من فئـــة مضللة لا هم لهـــا الا تدمير كل بناء اجتمـــاعى والكيد لكل حركة تصاعدية . فاعتبر هذه الفئة من اصحاب الفتنة وأكد ان الفتنة اشد من القتـــل ، واوجب على السلطة الحـــاكمة أن تتدخل حين يشيع الـــرأى الذى يوقظ الفتنة لتتلافى بذلك كل هـــزة اجتمـــاعية محتملة . ولا نحسب منصفا حين يتصفح التاريخ الاســـلامى واحداثه ومآثر افذاذه ، يجرؤ على اتهام الاسلام بمصادرة الرأى اذا ما وقف على بعض الحوادث التى تظهر لاول وهلة انها من قبيل الكبت بل وان شئت فقل القمع لهذه الحرية المقدسة .

حرية الآخرين :

ان الاسلام يعتبر ان حرية الفرد تنتهى حين تبدأ حرية الآخرين وهذه القاعدة التى تمشى عليها واتخذها مرتكزا للحريات العامة هى نفسها اليوم وفى ارقى المجتمعات الحديثة واشدها تعلقا بالحريات وتغنيا بهـــا ، القـــاعدة التى ترتكز عليها الحريات . فهاتوا لى بالله عليكم بلدا فى عصر الذرة لا يمتهن حرية من يعمل لتحطيم حريات الآخرين ؟ ولا يكبت رأيا يهدد المصالح العامة ويسىء الى هذه المصالح ؟ ان اميركا وهى زعيمة الدول الديموقراطية كمـــا تزعم فى عصرنا الحديث ما زالت حتى اليوم تمتهن معتنقى الشيوعية مثلا وتلاحقهم جزائيا وتنزل بهم العقوبات الجسدية من أجل آرائهم العقائدية مع أن مجموعة كبرى من الامم اعتنقت هذا المذهب الاجتماعى وطبقته فى بلادها . فهل يؤخذ على المجتمعات الاسلامية خلال تطورها التاريخى انهـــا قمعت بعض الاراء المدمرة حقا فى سبيل السلامة العامة ؟ وهل يجـــوز ان نعتبر هذا القمع خرقا لحرية الرأى التى كفلها الاسلام ؟

حرية المـــرأة :

اما حرية المرأة فقد كفلها الاسلام حين ساواها بالرجل فى النفس والجاه والكرامة ، ورفع عنها تلكم الآصـــار ، وحررها من قيـــود الذل والاستكانة

والهوان . ونزل قول الله تعالى : يا ايها الذين امنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا ان يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) .

حقق الاسلام للمرأة كافة حقوقها وكامل انسانيتها وحررها من كل قيد منذ أكثر من اربعة عشر قرنا . فبينما تتلو قول الله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب) وبينما نردد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (سووا بين اولادكم فى العطية ولو كنت مفضلا احدا لفضلت النساء على الرجال) اقول بينما كنا تتلوا ونردد مثل هذه الاحاديث وتلكم الآيات نجد المرأة فى بريطانيا ، ارقى دول العالم ، قد بقيت حتى القرن التاسع عشر لا يؤذن لها ان تمشى فى شوارع لندن بغير حارس ولا يؤذن لها ان تنتقل الا فى عربة مقفلة ولا يؤذن لها ان تسافر الا برفقة رجل امين . بل لقد ظلت بريطانيا لمئة سنة خلت تبيح بيع الزوجات وانه فى سنة ١٨٥٠ كان ثمن الزوجة نقدا ستة بنسات أى ما يساوى حين ذاك اربعة فرنكات .

كفل الاسلام للمرأة حرية التصرف واباح لها ان تملك العقار والمنقول ، وان تهب وتشترى وتبيع ، وان توصى وتقاضى كما تريد ، على حين ان الدول الكبرى صاحبات الدعوة الى حرية الشعوب لم تتوصل الى ما توصل اليه الاسلام فيما يتعلق بحقوق المرأة وانصافها الا فى مستهل القرن العشرين . اعطى الاسلام المرأة كل الحقوق التى اعطاها للرجل مدنية كانت أو سياسية ، فلها حق العمل بمزاولة كل مهنة شريفة تعجبها ولها حق الانتخاب والتمثيل النيابى البلدى والادارى وان تتولى مناصب القضاء .

وفى صدر الاسلام بايعت النساء محمدا عليه الصلاة والسلام وبايعه الخلفاء من بعده والبيعة ابلغ من الانتخاب . وفى عصر الايوبيين تبوأت

« شـجرة الدر » عرش مصر وكانت ام المقتـدر رئيسة لمحكمة الاستئناف ببغداد .

وعلى الجملة ليس من امة تحت السماء انصفت المرأة وناصرت المـرأة وحررت المرأة مثل الامة العربية ، وفى هذا يقول فون كريمر (ان العـرب كانوا مفطورين على احترام النساء ومنهم تعلم الغربيون احترام نسائهم) .

حرية العمـل :

ان من الحريات العامة التى كفلها الاسلام ايضا حرية العمل فهذه الحرية مطلقة مبدئيا الا ما خالف منها الشريعة الاسلامية فان الاسلام يحظرها بوصفه دينا سماويا ونظاما اجتماعيا وفكرة سياسة فى آن واحد ، وهو حين يحظرها انما يخص بهذا الحظر المسلمين ولا يفرضه على غيرهم من رعايا الدولة .

فلغير المسلم ان يتاجر بالخمرة وان يصنعها ولكن ذلك لا يجوز للمسلم لان دينه حرم الخمرة وحرم بيعها كنتيجة مبـاشرة لتحريم تعاطيها . ولغيـر المسلم ان يقتنى الخنزير ويربيه ويبيعه ويشتريه ، وان يتعاطى الميسر والربا ولكن ذلك لا يجوز للمسلم لان قانونه الدينى حرمه بقوله سبحانه (انمـا الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) وقوله أيضا (وأحل الله البيع وحرم الربا) .

ومن الاعمال ما كرهه الاسلام باعتباره آلة المعصية اى انه يفضى اليها كصنع الآت الملاهى واستئجار المغنيات وهذه الكراهة ليست تحريمية وانما هى من قبيل الوقاية والحماية الاجتماعية .

ويجب ان لا ننسى نقطة هامة جدا ما دمنا فى صدر الحديث عن حرية العمل فلقد كانت بعض الصناعات والحرف والاعمال مشينة فى نظر العرب الجاهلين فجاء الاسلام يمجد العمل ويبارك العامل وقد روى عن الرسول

صلى عليه وسلم انه مر بشيخ تشققت يدا ءمن العمل فاخذ يده فقبلها ثم قال (هذه يد يحبها الله ورسوله) .

ولقد ضرب الرسول عليه السلام مثلا اعلى فى الدعوة الى العمل واحترام الحرف حين قال : (الحرفة امان من الفقر) وحين طبق ذلك عمليا بأن كان هو بنفسه يرتق ثوبه ويحلب شاته ويخصف نعله .

وكانت حرية الاقامة والانتقال مباحة ايضا عملا بمبدأ الحرية العامة فللمواطن فى الدولة الاسلامية ان يقيم انى شاء وان ينتقل حيث ما شاء دونما تقييد أو تضييق . وهذه الاباحة مطلقة لجميع المواطنين مسلمين كانوا أو غير مسلمين وذلك فى زمن السلم ، ولكن الامر يختلف بعض الشىء فى زمن الحرب وهذا امر طبيعى لا يمكن ان يعتبر مأخذا أو تقييدا للحرية .

اما التجمعات الطائفية ان صحت التسمية فلم يكن نظام الدولة يقتضيها ولا الدين يتطلبها ، انما التشكل الاجتماعى وطبيعة المجتمعات هى التى اقتضتها وتطلبتها اذ لم يكن المسلمون يفرضون على غيرهم من مواطنى الدولة الاسلامية ان يقموا فى بقعة معينة او ان يحشدوا فى ناحية معينة ، بل كانوا يتركون لهم حرية الاقامة والتنقل يقيمون بصورة عفوية حيث تنتظم احوالهم المعيشية ، ويتنقلون بصورة عفوية حيثما تقتضى ظروف حياتهم .

حرياتنا فى الميزان :

انه ليمكن القول بأن الحريات العامة فى عصرنا وفى ظل النظم الحديثة ليست أسعد حظا منها فى ظل الدولة الاسلامية رغم مرور أكثر من اربعة عشر قرنا على نشوء تلك الدولة ، ورغم التطور الاجتماعى الذى طرأ على الانسان الحديث وانظمة الحكم .

فما زلنا نرى كل يوم من مآسى الحرية فى عصر الاشعاع الذرى ما يندى له جبين الانسانية . فهناك اقطار سلبت حرياتها وحرمت حق الحياة

حتى اذا ارادها الوعى ان تنتقض لتستعيد حرياتها المسلوبة وحقها المغتصب ، اغرقها الطغاه باسم الحـــرية دما وحديدا ونارا . وهنـــاك فئات لم تمنحها ديموقراطية القرن العشرين سوى لون واحد من الوان الحرية هو حرية الموت جوعا فتموت دون ان تثير اهتمام حاكم او عناية سلطة .

وهناك فئات ما زال يجنى عليها لونها ، انها ضحية للون عجيب من الوان العبوديات ما فتىء يعيش فى ظـــل المدنية الحاضرة هو عبودية اللون . اليس عارا على الانسانية ان يستعبد انسان من اجل لونه ؟ وأنى للانسانية صوت كصـــوت ابن الخطاب يرتفع مجلجلا (متى استبعدتم الناس وقـــد ولدتهم امهاتهم احرارا) ؟ ليحطم كل قيد وليكسر كل نير ؟ وأنى لحرياتها ذلك الجو الرائع والمناخ الملائم الذى هيأه الاسلام ؟ ألا من يعيد الانسانية الى صوابها ؟ من يفتح عينيها على الاسلام ومحاسن الاسلام وديموقراطية الاسلام ، وعلى بذور الخير الكامنة فى تعاليمه ؟ هـــذه البذور التى تحتـــاج الى عقل بصير يكتشفها ويدخيرة تنثرها ؟ وأنى للحريات العامة نظام الهى يحميها كالاسلام ؟

« ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ، وهو يدعى الى الاسلام ؟

والله لا يهـــــدى القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون » .

المجتمع المثالى

* يؤكد الاسلام بأن الناس سواسية ، ولا يتفاضلون الا بالعمل الصالح والخلق القويم ، وهكذا نراه يطهر الانسانية من غرور النسب وصفة اللون .

* ان الاسلام كفر من ينقض واحدا من الانبياء الذين سبقوا محمدا ونزه تاريخهم عن الكذب ، وضرب بعزمهم وصبرهم الامثال ، مؤكدا انهم كانوا مشاعل هداية للعاملين .

* اسقط الاسلام الفروق الدينية فى القضاء ، فلا فرق بين مسلم وغير مسلم امام العدالة . وقد برهن النبى والخلفاء الراشدون بأعمالهم على ذلك .

معركة بين النظريات :

ما زال الانسان منذ بدأ يرقى سلم المدنية ، تائها وراء أمله المنشود ، وبغيته الضائعة ساعيا من أجل هدفه الاسمى ، ورسالته العليا ، الا وهى « المجتمع الفاضل »

وفى سبيل هذه الغاية ، راح العقل الانسانى يبتكر فى كل يوم نظرية ، ويرى فى كل يوم رأيا ، ويحاول فى كل مناسبة محاولة ، وينهج فى كل ظرف نهجا . وتشابكت النظريات والاراء ، وتباينت الحلول والمناهج ، واتخذ بعضها الصفة السياسية ، وحمل بعضها راية العقل ، وتوسل بعضها الآخر

بالتجارب والعمليات التطبيقية، وهانحن فى القرن العشرين نعيش على فوهة بركان خامد ، لا نعرف مدى ثورته ؟ ولا ندرى لحظة انفجاره . ها هى الانسانية اليوم ، وقد تفرقت شيعا واحزابا ، ونظريات وأنظمة ، يحاول كل منها ان يكسب التأييد ونيل الغلبة ، بتوفير اكبر قسط من العدالة ، ويسعى كل منها من اجل اخضاع الاكثرية البشرية لمبادئه واسسه ، وكل نظام يحاول ان يغرى أنصاره بزعمه حماية العدالة ، وحرصه على الحرية ، وحراسته للقيم السامية . وكل نظام يحاول ان يظهر للملأ بمظهر البطولة والترفع والاخلاص للانسان ، وسعادة الانسان وأمنه وسلامه .

ولكن .. ما هى حصيلة هذه المعركة بين النظريات ، وما هى نتيجة هذا التسابق بين المبادىء فى كسب ود البشرية واكتساب رضائها !؟..

السعادة ضالة البشر :

مما لا شك فيه أن اختلاف الانسان فى تطبيق مفهوم العدالة ، وتباين آرائه حول مبادئها ، جعل العدالة نفسها فى خطر .. وهذا الاستنتاج امر بدهى تماما . لان الغاية من تطبيق العدالة هى الوصول « الى السعادة » والحصول على الامن ، والتمتع بالراحة والرخاء .. للاحياء جميعا .. وهذه الغاية لن توصلنا اليها الحروب ولن تضعها بين ايدينا الدماء التى تريقها الشعوب .

وسبيل الانسانية الى السعادة والسلام ، سبيل لا يمكن سلوكه بالطائرات ولا يمكن تمهيده بالقنابل والطريق الىالأمن الانسانى العاملسنا فيه بحاجة الى الأحلاف التى لحمتها المصالح الرخيصة ، وسداها التجارة بمصائر الناس .

اجل ان السعادة ليست مطلبا عسيرا ، يستحيل على الانسان امتلاكه أو الحصول عليه ،وليست هدفا خياليا يحلم به المصلحون الاجتماعيون ،

وليس معنى هذا أن الحروب التى استعرت نارها بالأمس بين النـازية والرأسمالية والتى يدور خطرها اليوم بين الشيوعية والرأسمالية ليست هذه الحروب دليلا على أن الأمن بين الانسان واخيه ، والسعادة بين البشر ، أخبار علمية تدور فى الرءوس وتذكرها الألسن ... ولكنها لا توجد .

لا .. فما اشد خطأ من يدعى ذلك لان حالة التوتر القائمة دائما وابدا بين النظريات الانسانية التى تزعم انها تعمل من اجل اسعاد البشر واشـاعة السـلام بينهم .. حالة التوتر هذه دليـل صريح لا ينقض على ان النظريات الانسانية كلها نظريات فاشلة .

ودليل على ان العاملين من اجلها انانيون مخطئون ، وان الانسان فى كافة مراحله لا يستغنى عن السماء ووحى السماء . وان رسالة الاديان لم تفقد جوهرها الروحى بعد ، ولم تتنازل عن رفعة مقاصدها ، وترفع اهدافها ، وان الناس مهما اوتوا من العلم ، ومهما حازوا من درجات التقدم ومهما نالوا من اطوار الازدهار .. فانهم دائما وابدا عباد الله ، بحاجة لشرع الله . ذلك الشرع الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى لا شفاء للانسان الا به ، ولا سعادة الا باتباعه ...

والله تعالى اعلم منا بانفسنا ، واحرص على سعادتنا منا ، ونظامه للعدالة نظام الهى ليس فيه طمع ولا جشع ، ولا كبرياء ، ولا تسلط ، وهو الغاية التى ما بعدها غاية .. والامل الذى ليس من بعده أمل .

عمل الاسلام من أجل العدالة :

الاسـلام كدين سماوى ، وشرع الهى ، ضرب بسهم وافر فى تنظيم العدالة ، وارساء قواعدها بين الناس ، ونال حظا عظيما فى رسـم القواعد الاولى لاسعادهم ، وتوفير الامن والطمأنينة لهم ، وفتح فتوحا جديدة فى محاربة الآفات التى كانت تأكل كل جهـود المصلحين الاجتماعية كمـا تأكل النار الحطب ..

فماذا فعل الاسلام ؟ وكيف حقق العدالة فى بناء المجتمع ؟

معنى العـــــدالة فى رمضان :

هذا ما سنحاول كشف النقاب عنه ، للمسلمين خاصة وللمواطنين عامة ، وأول مثل له شهر رمضان المبارك الميمون ، الذى انزل فيــه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . ذلك بان رمضان وحده بما يتخلله ويحف به من المعانى الانسانية الرفيعة ، هو صورة رائعة من سمو العدالة الاسلامية بل هو من اقوى ضروب الرياضة ، التى يقود الاسلام بها أزمة النفوس ، الى تحقيق حياة اجتماعية مثلى ، تقدم على اكرم مبادىء العدل والمساواة .

فاذا جاع الفقير وشبع الغنى فى كل أيام السنة ، وأدى ذلك الى شعور الاول بمرارة الظلم ، وزهو الثانى ببطر النعمة ، ـ جاء رمضان فنشر لواء الجوع على الغنى والفقير ، بدرجة واحدة ، فأحدث للعدالة طعما جديرا بأن يشد النفوس اليها ، ويديم ارتباطهم بها ، لأن فى المساواة امام الجوع تعزية لنفس الفقير بأن الغنى قد اصبح نظيرا له ، وتربية لنفس الغنى بان الفقير نده وقرينه .

وكذلك يجمل وجه العدالة الاسلامية حين يرسل المؤذن صيحته الخالدة مع غروب الشمس ، فتحمل الاذن بالطعام للفقير والغنى على السواء ، فاذا المساواة طابع رمضان ، يشعر المسلمين بها فى الحرمان فيمضى اليوم والناس جميعا ممسكون ، ويروضهم على الاعتصام بها فى العطاء ، فلا تغرب الشمس الا والجميع مفطرون .

ولا مراء فى ان الاســـلام يهدف بفريضـــة الصيام الى تأصيل فضـــيلة العدل ، سواء بهذه الوحدة بين كافة الطبقات فى مظاهر الحياة ، أو بما يثير فى نفوس ذوى اليسار من الشعور بآلام المعسرين ومد اليد اليهم ، بالمشاركة فى مال الله الذى آتاهم اياه .

لقد ضاعف الله اجر الصدقات فى رمضان ،

وتسابق الصحابة الكرام الى البذل والعطاء فى رمضان ،

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جوده كالريح المرسلة ، وكان أجود ما يكون فى رمضان . ثم فى نهاية الشهر تجب زكاة الفطر فلا يقبل الصيام الا بادائها اتماما لحق رمضان . فاين تذهب حصيلة هذه التوجيهات كلها ؟ وهى كثيرة لا يحيط بها الاحصاء ، واى اثر تحدثه هذه العطايا جميعا فى مجتمع يتفاوت اهله فى الغنى واليسار ؟

الا ترون ــ قرائى الاعزاء ــ ان مجتمعا تنحدر فيه هذه الاموال من قمم الثــروات الى سفوح الاقلال جدير بان يجــد فيها خيــر اداة لاحداث التوازن ، وتقريب مسافة الفرق بين كافة الطبقات ؟

ثم الا توافقون معى على ان رمضان بهذا الاعتبار حرى ان يعتبر معرضا سنويا لفضائل الاســلام ، وفى مقدمتها فضيلة العدل والمســاواة بين عامة الناس ؟

دعائم المجتمع المثالى :

يقوم المجتمع فى نظر الاسلام على دعائم عدة من خلق وحكم ووحدة وأمل وتكافل ، ولكل منها اثره الكبير فى تسديد خطى الجماعة الانسانية نحو الرقى والكمال .

وما من شك ان العدالة والمساواة دعامتان اساسيتان وضروريتان لبناء مجتمع صالح ، وتأمين استقراره وطمأنينته .

والاسلام حين يحدد دورهما فى بناء المجتمع ، ويشدد عليهما كعاملين يضمنان كيانه ويثبتان قواعده ، انما يسيرهما فى اتجاهين مختلفين : سلب وايجاب ، ويعهد اليهما بعمليتين : هدم وبناء ، وذلك لان توجيهات الاسلام الانشائية بمثابة بذور النبات الزكى لا بد لكفالة نموه من تطهير التربة من

الطفيليات ، ضمانا لطهارة الفطرة الترابية ، التى تحضن الغرس الطيب ، وتنميه ، ليعطى ثمره الحلو اليانع .

تطهر داخلى :

من أجل ذلك ، يعمد العدل الاسلامى ، الى شق طريقه ، بتطهير وعاء النفس الانسانية من كل ما يشعرها بالصلف حينا ، وبالصغار حينا آخر ، حتى يردها الى أصالة طهرها . فلا يغريها الاقبال ، بالجشع والكبرياء ، ولا يشدها الحرمان والعوز الى استمرار الضعة والهوان . وكلما بلغ الغاية من هذا التطهير فى جانب ، أسرع الى ايداعه عناصر العدل الايجابية ، فمهد بذلك لقيام بناء المجتمع الراشد على ارض خلت تربتها من الطفيليات وبذور الطفيليات .

ولعل أول ما يستهل به العدل الاسلامى عمله ، فى بناء المجتمع الصالح ، هو انه يقيم الموازين القسط بين ابناء آدم جميعا ، ويعلن ان النفس الانسانية من اصل واحد :

« يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »

فيحرر المجتمع بذلك من الاحتكام الخاطىء الى المعايير المصطنعة ، فى النظر الى فئات الخلق ، والحكم على اقدار الناس .

قلنا ان الاسلام يشدد الحملة على بذور الكبرياء والضعة ــ وهو الجانب السلبى من عملية البناء ــ ليهيء النفس الانسانية لمنهج الاعتدال الكريم ، الذى لا يبطره زيف الدنيا وبهرجها ، ولا تحنى هامته حوادث الايام : قال تعالى فى كتابه العزيز :

« اليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » وفى موضع آخر : « قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه » .

فهل يسع امرء يؤمن بالله وباليوم الآخر ، ان يسد اذنيه ، فلا يصغى الى هذه النذر ، وان يسمح لها فتزين له الزهو على الخلق او تستدرجه الى ادعاء التميز على سائر الناس ؟

بل ألا ترون — قرائى الاعزاء — ان من شأن هذه النذر ان تحدث رد فعل طبيعى فتكاد تهبط بالنفس الانسانية مباشرة من التعالى والاستكبار ، الى القناعة بالدون والصغار ، لولا ان فى هذا العلاج اسباب المناعة من الانتكاس حين يقول تعالى :

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وفى قوله ايضا : « أيبتغون عندهم العزة : فان العزة لله جميعا » .

وحين يقول رسوله عليه السلام : « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف واليد العليا خير من اليد السفلى » وتبلغ الحصانة أوجها بهذا الحديث الشريف « من اعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منى » .

أسس البناء اللاثثة :

بمثل هذه الحملات العنيفة على نوازع التمييز بين الانسان ، يقتلع الاسلام من النفس الانسانية الطفيليات ، ويهيأها لتقبل بذور التوجيه الايجابى البناء ، الذى يمكن ان نجملها فى ثلاث نقاط :

أولاها : وحدة المنشأ :

لقد قرر الاسلام ان الناس جميعا متساوون فى قيمة الفطرة التى نشأوا منها والتى مردهم اليها ، وهى الفطرة الترابية التى لا تسمح لعاقل ان يتخذها مادة للشموخ بانفه ، او العلو بقدره ، « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى » .

« والناس لآدم ، وآدم من تراب »

وثانيها : وحدة القيمة :

فالاسلام حين يضع الأصل البشرى بصورة ينتفى معها الغرور ، وفى وضع لا يمكن معه اتخاذه مادة للزهو والخيلاء والاستعلاء ، يقرر كذلك الا تفاضل بين الناس بهذا الاصل بل التفاضل بينهم يقوم على اساس آخر .

ان الناس كما أكد الاسلام سواسية كاسنان المشط ولكنهم يتفاضلون بالعمل الصالح والخلق القويم : «لا فضل لعربى على اعجمى .. الا بالتقوى» « والخلق كلهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعيـاله » . « ومن اطاعنى دخل الجنة ولو كان عبـدا حبشيا ، ومن عصانى دخل النـار ولو كان شريفـا قرشيا » .

ألم يعمد الاسلام فى تعاليمه هـذه الى توجيه النفس الانسانية نحو الخير ، وانتزاع ما يشوبها من غرور النسب وضعة اللون ؟ ليحقق المسـاواة فى القيمة بين الناس جميعـا عند نقطة انطلاقهم فى خـدمة مجتمعهم ، ثم لا يعترف بشىء من التمايز فيما بينهم الا بنسبة ما يقدم احدهم لمجتمعه وبنى دينه ووطنه .

وحدة المصير :

اما النقطة الثالثة التى أراد الاسلام ان يهيىء بها النفس الانسانية لتقبل فكرة العدل والمساواة فهى وحدة المصير :

ان الناس حين يشعرون بانهم صائرون الى نهاية واحدة . ومنهون مهما طال بقاؤهم على الارض الى مصير واحد ، ينزعون الى حب العدل والمساواة والى التخلق بكل ما هو كريم وتسامح .

واى شىء يغرى الانســان بالتطاول على الخلق ، ونذير الموت يقرع سمعه : « كل شىء هالك الا وجهه .. له الحكم واليه ترجعون » .

وكيف يتطاول المرء على اخيه ، وهو يشعر ان الموت مصير كل حى ، وان حفرة القبر الموحشة مثوى لكل انسان ، وان القوى والضعيف ، والمغرور والمسكين ، والظالم والمظلوم ، كلهـم فى القريب على مائدة البلى ، بل فى ضيافة الدود والتراب ؟

أمام كل ذلك . تنهزم عوامل الاستعلاء والاستخذاء جميعـا فى نفس الانسان ويقوى فيها الميل الى القصد والتزام الصراط المستقيم .

«وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ، ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » .

المسـاواة المطلقة :

وينطلق الاسلام بعد ذلك ، لينفث روح المساواة والعـدالة فى مظاهر ثلاثة من مظاهر الحياة العامة .

فى العقائد ، وفى العبادات ، وفى المعاملات ،

فالاسلام ، يدعو الى احترام الاديان السماوية عامة ،

« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينـا وما انزل الى ابراهيـم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، وما اوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم » .

ثم ينهى عن مضايقة غير المسلم فى عقيدته وعبادته وماله ،

ويعلن حرية المعتقد : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ،

ويؤكد اخوة الاديان جميعها ، فيقول تعالى : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » .. ويعلن انها من مصدر واحد : « انا أوحينا اليك ، كمـا اوحينا الى نوح والنبيين من بعده » .

اما فى العبادات ، فقد حرص الاسلام على ان يساوى بين معابد الاديان جميعا فى الحرمة الواجبة لها ، والقاضية بصيانتها وعدم المساس بها .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . »

ولم يكتف باقرار المبدأ بل انه نهى عن التعرض للرهبان فى صوامعهم ، وطبق الخلفاء الاولون هذه التعاليم تطبيقا رائعا ، اذ ان القراء يذكرون ما جاء فى وصية ابى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، لقواده وكيف نهاهم عن التعرض للصوامع ، ونساكها :

« وستجدون اقواما ترهبوا فى صوامعهم فدعوهم وما فرغوا انفسهم له » .

صورة فذة من تطبيق مبدأ المساواة :

ولم يقف احترام الاسلام للعبادات عند هذا الحد ، بل ان السلوك الاسلامى حظر استخدام معابد الذميين لصلاة المسلمين حتى لا يدعى المسلمين حقا عليها مع مرور الزمن . والتاريخ ما زال يذكر باكبار ، يوم دخل الخليفة العادل عمر بن الخطاب بيت المقدس ، وحان وقت الصلاة وهو يزور كنيسة القيامة ، وأراد ان يؤدى الفريضة ، فسارع الى الخروج من الكنيسة ، ليصلى عند عتبتها ، ويسأل الخليفة عن سر هذا التصرف رغم ان الاسلام يعتبر المعابد جميعا من بيوت الله ، ورغم ان التعاليم الاسلامية تبيح للمسلم ان يصلى أنى شاء ، فيجيب الخليفة العظيم بانه لم يفعل ذلك الا لانه لا يريد ان يأتى يوم يستولى فيه المسلمون على الكنيسة بحجة ان ابن الخطاب صلى فيها !

أما فى المعاملات فان الاسلام وقف من الذميين والمعاهدين موقفا نبيلا ، لا تلحقه فيه احدث النظم العصرية التى تتشدق بالحرية والمساواة .

فلقد حث على احتـــرامهم واكرامهم واحســـان معاملتهم ، واستهدف حمايتهم وحماية اموالهم ، واتخـــذ دين الذمى اساسا لرعاية ماله ، ولو كان هذا المال من المحرمات فى نظر الاسلام ذاته .

والدليل على ذلك انه مع تحريمه الخمر والخنزير ، وتحذيره المسلم من الخمر او صنعها او بيعها ، ومع انه حرم عليه اكل لحم الخنزير او تربيته ، او الاتجار به لان الخمر والخنزير فى نظر الاسلام مال غير متقوم مع كل ذلك فقد اوجب الاسلام حماية هذا المال غير المتقوم اذا تعلق الامر بذمى .

فلو اتلف احد المسلمين خمرا او خنزيرا لمسلم فلاعقاب عليه ولا تعويض لان الخمر والخنزير كما قدمنا مال غير متقوم بالنسبة للمسلم ، اما اذا اتلف مسلم خمر ذمى او خنزيرا يملكه ، فان الاسلام يفرض عليه العقاب والتعويض لانه فى دين الذمى مال متقوم يجوز التعامل فيه عند اهل الكتاب .

واوجب الاســـلام على دولته ان تحسن صحبة الكتابيين من الطوائف التى لا تدين بالاسلام فقال تعالى فى كتابه الكريم :

« لا ينهـــاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الـــدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم » وما اكثر الشواهد فى التاريخ الاسلامى على نبل المعاملة التى يلقاها الذميون من المسلمين ، وكيف كانوا يعملون على توفير الطمأنينة لهم من حيث الحماية المالية والحرية العقائدية .

رب قائل يقول : ان فى الاسلام نزعة استعلاء على بقية الاديان ، وميلا الى الظهور عليها بدليل انه استهدف جمع الناس على رسالته ، وانه اورد فى مواضع كثيرة من القرآن ، ما يفيد بان الله فضله واظهره على الاديان جميعا مثل قوله تعالى :

« ليظهره على الدين كله » وقوله : « هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون »

نظرة الاسلام الى الاديان :

ولرفع الشبهة التى تسبق الى بعض الاذهان من هـذه الآيات الكريمة نقول :

ان الاسلام نادى بوحدة الاديان السماوية جميعا ، فهى فى نظره متحدة المنابع ، موحدة المصدر ، وقد اعطينا الدليل ، فيما مر ، على ذلك .

ولكن الاسلام ، من ناحية ثانية ، يعتبر الأديان التى سبقته مراحل هداية ، وهو اذ يعتبرها كذلك لا يقل من شأنها واهميتها ، وضرورة احترامها ، بل انه يصر على وجوب احترامها واعتبارها واياه شيئا واحدا . وانما كانت الأديان التى سبقت الاسلام متوافقة مع حاجات البشرية فى عصورها السالفة حتى اذا تم نضج البشرية وتبلورت حاجاتها جاء الاسلام اكثر شمولا وأوفى بمطالب الانسانية التى طرأت عليها بعد رسالات الأنبياء السابقين صلوات الله عليهم اجمعين .

وليس أدل على حقيقة نظرة الاسلام للاديان الأخرى من مدحه للموسوية الصحيحة بقوله : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا » .

ومدحه للمسيحية الربانية بقوله « اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة » .

ولا نعتقد ان كتابا دافع عن عصمة مريم كما دافع القرآن الكريم ، واننا لنحيل من يشك فى هذا القول على سورة مريم ، ليرى كيف نظر الاسلام الى المسيحية نظرة تنزيه وتقديس .

الاسلام والانبياء :

اما بالنسبة للانبياء الآخرين الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم،

فالدين الاسلامى كرمهم اعظم تكريم ، فكفر من ينقض واحدا منهم مهما احب محمدا ، ونزه تاريخهم عن الكذب وضرب بعزمهم وصبرهم الأمثال ، وأكد انهم كانوا مراحل هداية للعالمين :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . م اكان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

يستنتج مما تقدم ان جمع الناس على الاسلام هو جمع على هدى السماء ، متضمنا روح الأديان السابقة ، وان ظهوره على الدين كله هو ، ظهور الكتب السماوية جميعا بظهور مرحلة الختام على مراحل البداية ، والدليل على ذلك ان القرآن حين يؤكد ظهور الاسلام يقول . ولو كره الكافرون . ولو كره المشركون . ولم يقل ولو كره اليهود أو المسيحيون .

قواعد العدالة الاجتماعية :

لقد عمل الاسلام من اجل عدالة اجتماعية ، ترسيخا لفكرة العدالة كمبدأ ، وتنمية لها كسلوك ، لذلك سعى الاسلام الى تحقيق العدالة الاجتماعية بوسائل شتى أهمها :

١ ــ اعلان الاخوة بين ابناء المجتمع الاسلامى :

ا) « انما المؤمنون اخوة ، فاصلحوا بين اخويكم . »

ب) لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

٢ ــ تشديد النكير على كل عمل يوهن الأخوة الاسلامية :

ومن اجل ذلك حرم التعالي والسخرية بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن) .

وحرم التعريض بالعيوب والتفاخر بالاحساب « ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالألقاب » .

وحرم الغيبة والنميمة وسوء الظن : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب احدكم أن يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه » .

٣ ـ الترغيب فى كل ما يجمع القلوب ويدعم الوحدة :

كالدعوة الى الاصلاح بقوله صلى الله عليه وسلم : « الا ادلكم على افضل من درجة الصلاة والصوم ؟ اصلاح ذات البين » .

وكحسن الجوار بقوله : « اتدرى ما حق الجار عليك ؟ اذا استعانك اعنته ، واذا استقرضك اقرضته ، واذا افتقر عدت عليه ، واذا مرض عدته ، واذا اصابته سراء هنأته ، وان اصابته مصيبة عزيته ، واذا مات اتبعت جنازته ، ولا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب الريح عنه الا باذنه ، ولا تؤذه بقتار ريح قدرك الا ان تغرف له منها ، واذا اشتريت فاكهة فأهد له ، والا فادخلها الى بيتك سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده » .

كما اغرى الاسلام بالمساعدات والخدمات الاجتماعية ، فاعتبر مساعدة الضعيف صدقة ، وازاحة الاذى عن الطريق صدقة ، وحث على التعاون ابتغاء خير الجماعة فقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » وقال عليه السلام « من ادخل السرور على اهل بيت من المسلمين لم ير الله له جزاء دون الجنة »
كما قال : لأن يمشى احدكم فى حاجة اخيه خير له من ان يعتكف فى مسجدى هذا شهرا » .

٤ ـ اعلان الاخوة الانسانية ، واسقاط التفاضل بالانساب والمظاهر :

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى » ، بهذه الصيحة الثائرة واجه الاسلام الاحساب والانساب والتفاضل القبلى ، ثم راح صاحب

الرسالة العظيم يطبق ذلك تطبيقا عمليا ، فيكتب بين المسلمين واليهود صحيفة الموادعة يساوى فيها ، بين الفريقين فى الحقوق الواجبات ويأتى قادة الفتح الاسلامى ليترسموا هذا الطريق ، فيفعل مثل ذلك المثنى وسعد مع النصارى الذين حاربوا معه فى البويب وفتح بهم فارس والمدائن .

لفتات نبوية حول الاخوة الانسانية :

ويوصى الرسول العظيم اهله فيقول : « التمسوا لكم عملا ينجيكم من الله ، فو الله لا اغنى عنكم من الله شيئا » .

ويمر به ، وهو فى جماعة من اصحابه ، رجل حسن الهيئة فيقول لهم : ما تقولون فى هذا ؟ فيقولون : هذا والله حرى اذا قال ان يسمع لقوله ، واذا خطب ان ينكح فيصمت الرسول العظيم . فيمر بهم رجل آخر تبدو عليه مظاهر الاقلال فيسألهم : ما تقولون فى هذا ؟ فيقولون يا رسول الله . والله انه لحرى اذا تكلم الا يسمع له واذا خطب الا ينكح . فيقـول محمـد عليه السلام كأنه يعطى الانسانية كلها درسا فى ان الخلق العظيم ميزان الأفضلية ولو كان صاحبه مثال الفقر والفاقة ، يقول عليه السلام : « لهذا خير من ملء الأرض من هذا » .

العدل أســاس الملك :

ولقد رأى الاسلام ان العدالة لا قيمة لها اذا لم يكن هناك قضاء عادل بين الناس ، فجاء التاريخ يشهد بان المسلمين وفروا للناس عدالة قضـائية جعلتهم طليعة الأمم العادلة على الأرض .

يوصى القرآن الكريم بالعدل ، ويشدد عـلى ذلك بقـوله : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

فيقيم المسلمون أسس مملكتهم ، وقواعد حكمهم على العدل ، على هذه الركيزة الأمينة الراسخة ، التى لا يمكن أن يتزلزل حكم اذا كانت هى قاعدته ، وبفضل التوجيه المحمدى ، يتغلغل حب العدل ، فى نفوس اتباع الاسلام ، فيصبح شيئا من دمهم وأعصابهم .

فهذا عمر بن الخطاب يوصى أبا موسى الأشعرى حين بعثه قاضيا على الكوفة بوصية لا تزال حتى يومنا هذا مصدرا من مصادر التشريع ، فى اصول المحاكمات ومثلا يحتذى فى تلقين آداب القضاء ، يقول عمر رضى الله عنه وهو يوصى ابا موسى :

أما بعد ، فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك وأنفذ اذا تبين لك . فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاد له . آس بين الناس فى مجلسك ووجهك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما ، ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم ثم راجعت فيه نفسك أن ترجع الى الحق فان الحق قديم ، والرجوع الى الحق خير من التمادى فى الباطل .

الى أن يقول : اياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر .. الى آخر تلك الوصية التى ما زال طلاب الحقوق يتدارسونها فى الجامعات حتى اليوم .

وهذا هو ايضا يطلق فى سمع الدنيا صرخته التى ما تزال تدوى ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ، يصفع بها كل من يحاول أن يستغل نفوذه لالحاق الأذى بالناس ، أو انزال الحيف والظلم بهم . وهى تذكرنا دائما كيف ضرب الفاروق العظيم ابن الأكرمين ولد الحاكم عمرو ابن العاص اقتصاصا منه ، لأنه تطاول على أحد رعايا المسلمين .

وهذا هو أيضا ، يقيم حد الزنى على ولده ، فيستغيث به ولده ، ويقول: ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ، الا مزقتنى اربا اربا ، ولا تفضحنى بين المسلمين ، فيقول له الخليفة العادل جاعلا العدالة فوق عاطفة البنوة :

يا بنى وماذا اصنع بقوله تعالى : «وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين»

الناس أمام العدل سـواء :

ولو اردت ـ قارئى العزيز ـ أن اتقصى اخبار العدالة القضائية فى الاسلام عبر التاريخ لأعوزتنى المجلدات ، ولكننى قبل ان انتقل الى الناحية الاقتصادية أود ان اشير الى أن الاسلام أسقط الفروق الدينية فى القضاء ، فالمتقاضون أمام عدالته سواء لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، وكلنا يذكر كيف نهى الرسول عليه السلام عمر عن البطش باليهودى الذى اغلظ فى طلب حقه من الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف انكر علىٰ كرم الله وجهه من أبى بكر رضى الله عنه أنه ميزه عن خصمه اليهودى بالكنية ، مما يثير الشبهة فى نفس المتقاضى .

كما ان الاسلام اسقط الاعتزاز بالعاطفة والقرابة ، وقد سبق ، وذكرنا فى موضع آخر موقف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب من ابنه واقامته الحد عليه . وتأكيدا لهذا المبدأ ، نود ان نشير اشارة عابرة لحديثه عليه الصلاة والسلام الذى قال فيه :

ــ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

العدل الاقتصادى توأم العدل الاجتماعى :

ان كل عدل لا يقوم على اقتصاد منظم .. فهو عدل ناقص بل عدل ظالم ان صح التعبير ، فلن نكون عمليين حين نقول للجائع أو العارى أو المفلس أو العاطل عن العمل ، لا ترتكب الجريمة قبل أن نحقق له مجتمعا صالحا لا يجوع فيه ولا يعرى ولا يتعطل عن العمل .

ولا شك ان المجتمع الذى يطبق القانون بحرفيته على من لا يؤمن لهم مثل هذه الضمانات مجتمع فاسد ظالم مهدد بالانهيار .

فلنر ، كيف نظر الاسلام الى العدالة من زاويتها الاقتصادية :

لقد امر الاسلام بتأمين العمل لكل قادر عليه . ونظر الى كل نوع من العمل مهما كان ، نظرة احترام وتكريم . وقصة الرسول مع ذلك العامل الذى انتفخت يده من العمل معروفة فلقد حيا رسول الله هذه اليد العاملة قائلا : هذه يد يحبها الله ورسوله ، والأحاديث الرامية الى تمجيد العمل ، وتفضيله احيانا على العبادة واعتباره نوعا من العبادة ، كثيرة جدا لا مجال الآن لسردها وتفصيلها .

ولكن يجب أن نلاحظ أن الاسلام ساوى فى الكرامة الانسانية بين الخادم والمخدوم ، والمالك والأجير . وهذا ما لم تعرفه الانسانية فى غير تاريخ الاسلام .

ولم يكتف الرسول بالناحية النظرية ، بل طبق ذلك على نفسه عمليا فكان يعمل فى مهنة اهله ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه . وذهب الى ابعد من ذلك ، فأمر بأن يدفع صاحب المال للعامل أجرا اضافيا عن العمل الاضافى، وهذا خير ما توصلت اليه اليوم أحدث النظريات الاجتماعية .

عمر يحقق الضمان الاجتماعى

ولا شك أن بذور الضمان الاجتماعى على انواعه متوفرة فى الاسلام . فلقد كفل هذا النظام ما نسميه نحن اليوم المخاطر الجسمانية والمهنية والعيلية :

قدمت جماعة من التجار الى المدينة فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن تحرسهم من السرقة ؟ فوافق عبد الرحمن ؟ وباتا يحرسان القوم . وسمع بكاء صبى بينهم فتوجه الى أمه قائلا : اتقى

الله واحسنى الى صبيك . ثم عاد الى مكانه ولكن الصبى عاد البكـاء فعاد عمر اليها يقرعها ، غير انه فى المرة الثالثة قال لها :

ويحك انى اراك أم سوء مالى ارى ابنك لا يقر منذ الليلة :

فقالت له : ياعبد الله لقد أبرمتنى الليلة . انى أربعه على الفطام .

قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لم يفرض للرضيع فعجلت فى فطامه لآخذ له نصيب الفطيم واستعين به على فقرى .

فانصرف عمر الى بيته وصلى الفجر فلما سلم ، قال : يا بؤسا لعمر ! كم قتل من أولاد المسلمين . ثم أمر مناديا فنادى : الا تعجلوا اولادكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام .

وجاءت اليه يوما امرأة وقالت : يا امير المؤمنين هلك زوجى وتـرك صبية صغارا ليس لهم ضرع ولا زرع ، واخشى عليهم المجاعة ، وانا ابنة خفاف بن امين الغفارى . فقال لها عمر : مرحبا بنسب قريب . ثم انصرف الى بعير قوى ، فحمله غرارتين ملأهما طعاما ، وجعل معهما نفقة وثيابا ، وناولها المراة قائلا : اقتاديه فعسى ان يغنى هذا حتى يأتيكم الله بخير .

لا استـــغلال :

لقد تشدد الاسلام فى نظريته الى العدالة من زاويتها الاقتصادية فحرم ما نسميه اليوم بلغتنا السياسية : الاستفادة غير المشروعة عن طريق استخدام النفوذ والسلطان .

وحبذا لو أصغى حكامنا اليوم الى التاريخ الـذى يروى من روائع الاسلام وفضائله وسلوك اتباعه الأولين ما يلى :

رأى عمر بن الخطاب ابلا سمينة ، فسأل عن هذه الابل ، فقيل له : انها لعبد الله بن عمر فقال عمر : ما سمنت ابل عبد الله الا لأنه أرعاها بجاه أمير المؤمنين ادفعوا بها الى بيت المال .

واستدان بعض ولد عمر مالا من ابى موسى الأشعـرى اذ كان والى الكوفة فتاجر به فاصاب ربحا كثيرا ، فلما تطاير خبر هذا الربح الى عـمر استجوب ولده عن مصدره فاجابه انه تاجر بمال استقرضه من ابى مـوسى فدر عليه هذا الربح الكثير ، فقال عمر : انك حينما اشتريت ارخصوا لك الثمن لانك ابن امير المؤمنين . اذهب الى بيت المال فشاطره تجارتك .

وفى خلافة على بن ابى طالب رضى الله عنه ، قدم عليه أخوه عقيل وكان ذا عيلة فسأله الزيادة فى حصته من بيت المال حتى تقوم بحاجة ابنائه فواعده المساء ، فلما أقبل فى موعده قال له خذ هذا .. واشار الى شىء فى الأرض حسبه عقيل صرة فيها مال فهوى اليها فاذا هى جمرة من النار تكوى أنامله ، ففزع وقال لعلى : بئس ما جزيت اخاك ، اسألك مالا استعين به على حاجتهم فتعطينى جمرة ؟ فقال له على : أهذا مبلغ فزعك من جمرة أحماها صبى لمعبه ، وتريد أن تقذف بى فى نار سعرها جبار لغضبه ؟

حلقات التكافل الاجتماعى :

بقيت ناحية مهمة جدا من الموضوع ، وهى مبدأ التكافل الذى فرضه الاسلام وعبر عنه بالأمور التالية :

١) بالزكاة وهى فريضة غايتها الحد من مساوىء النظام الاجتماعى وقد نجحت الى حد بعيد ، فى تحقيق العدالة الاجتماعية بوجهها الاقتصادى اذ يروى لنا التاريخ أن عمر بن عبد العزيز لم يجد فى زمن ولايتـه فقيرا يصرف له من فيض الزكاة .

٢) بالصدقة ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرغب بها ويحث عليها فيقول لعائشة « اتقى النار ولو بشق تمرة » و « ما نقصت صدقة من مال » .

٣) بالوصية فى المال لوجوه الخير والفقراء ، وقد كان الرسول ايضا

يرغب بها ويحث عليها : يروى أن ابن عوف سمع النبى صلى الله عليه وسلم يرغب فى الوصية للفقراء بشىء من المال فبلغ من تأثره أن دعا بكاتب وجريدة ثم أمر باحصاء ثروته وأحصى الفقراء فى جريدة أخرى ثم قسم ماله جميعا بين الفقراء . وبعد أن فرغ من تفريق ثروته كلها تذكر ثلاثة من الفقراء ، لم يوص لهم بشىء وعز عليه ان ينتقض ما سبق أن أوصى به لعامة الفقراء فلم يجد الا متاعه الخاص فأمر الكاتب أن يلحق فى جريدته : وان عمامتى لفلان وان قميصى لفلان وان دابتى لفلان . فلما بلغ امره رسول الله دعا له ثم قال : حسبك الثلث وفى الثلث كفاية .

٤ — بالميراث الذى يهدف الى تفتيت الثروة واشاعتها بين أكبر عدد ممكن من أفراد الأسرة منعا لتحجر رؤوس الأموال وتجمعها فى يد واحدة .

الدين والدنيـــا :

لا احسب أن نظاما من الأنظمة الاجتمـاعية الحـديثة ، مهما بلغ من الحرص على تأمين العدالة ، يستطيع ان يؤمن هذه العدالة ويوفرها للمجتمع كما أمنها الاسلام ووفرها .

فالاسلام مع كونه دينا يعنى بتطهير الروح وتهذيب النفس فقد نظر الى الحياة نظرة واقعية وادرك ان هذه الحياة لا يمكن ان تستقيم ، وان يبلغ الانسان فيها سعادته ، الا بتحقيق التوازن بين الروح والمادة .

« ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » بمثل هذا الفهم الواعى للحياة ، بدأ الاسـلام نضاله لبناء مجتمع صحيح يتحقق فيه التوازن ، وقد استطاع ولا ينكر ذلك الا المكابر ، استطاع ان يقيم مجتمعا صالحا أعطى الانسانية الكثير من رقيها ودفع بها الى الامام فى معارج الرقى والتقدم والحضارة .

أين هو المجتمع المثالى ؟

ان التاريخ يشهد بأن الاسلام كنظام اجتماعى أثبت جدارته لتنظيم الحياة تنظيما رائعا . وما الحضارة العربية الزاهية ، فى الأندلس ودمشق ، والمدينة المنورة ، وما الوثبة الرائعة التى فتحت العيون الكليلة على النور والحرية ما ذاك كله الا ثمرة ذلك التنظيم وعطاء ذلك النظام .

هاتوا لى — قرائى الأعزاء — فى القرن العشرين ، فى قرن الذرة ، فى قرن المعجزات العلمية ، هاتوا لى انسانا كالانسان الذى رباه الاسلام ، هاتوا لى انسانا يفهم القرآن كما فهمه العرب الأولون ، ويطبق احكامه وتعاليمه كما طبقوها ، ويشيع روحه فى نظام الحكم كما اشاعوه ، هاتوا لى انسانا من هذه الطينة . اعطكم مجتمعا صالحا لا عوج فيه ولا أمتا ، مجتمعا لا يحتقر فيه الانسان ولا يجوع ولا يعرى .

من حقنا :

أليس من حقنا ان نقول للتاريخ : افتح اذنك لتسمع صيحة الاسلام تصرخ بالناس صراخا يفزع الظالمين والجشعين « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ثم تؤجج عليهم ثورة المظلومين والمحرومين بالحديث النبوى « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يضربوا على يديه أوشك الله ان يعمهم بعذاب من عنده » وبكلمة أبى ذر المدوية : « عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته — كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه » .

أليس من حقنا ان نقول للتاريخ : افتح عينك لترى محمد بن عبد الله تساق اليه أموال الأرض وكنوزها ورغد عيشها وهو الحاكم المطاع فيفرقها فى الناس ، ولا يحرم منها الا خاصة أهله وذوى قرباه ، حتى اذا عاتبه نساؤه فى ذلك أعلن أن ولاية الأمر لست مغنما يمتاز به السلطان عن سائر

الناس .. « ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميــلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخــرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » .

أليس من حقنا ان نستوقف ركب التــاريخ لنقول له : سجل بمداد الفخر والاعجاب : ان رئيس الدولة الاسلامية الأولى صلوات الله عليه قد مات ودرعه مرهونة عند يهودى . وان ابا بكر قد فارق الدنيا محروما من كل مال كان له قبل الخلافة ، وان عمر ، كان يقول : لو عثرت بغلة بالعراق لرأيتنى مسئولا عنها بين يدى الله :

ورثنــا المجــد عن آبــاء صــدق   أســـأنا فى ديــارهم الصــنيعا
اذا المجــد الرفيــع توارثتــــه   دعــاة الســوء أوشك ان يضــيعا

الديمقراطية المفقودة

* الديموقراطية الحديثة كلمة جوفاء ، حشوها هواء ومبادئها هراء ، أما ديموقراطية الاسلام فسلوك انسانى رفيع ، يرتكز الى أنبل ما فى النفس الانسانية من نزعات ، انه يقوم على دعائم الحق والحرية والعدل والمساواة .

* تعالوا نتتبع ديموقراطية فرنسا .. أم الحريات ، ونتفحص سلوكها تجاه الشعوب لنلمس الخدعة الكبرى التى اختبأت وراء البرقع الحريرى الرائع ، انها تتغزل بالحريات وكرامة الانسان ثم تنكفىء لتنكل بالحريات ولتنتهك — بكل استخفاف — كرامة الانسان .

* تعالوا نبحث عن أمثلة من ديموقراطية بريطانيا ، والولايات المتحدة ، بين مليون متشرد عربى أرادت لهم ديمقراطية الانكليز والامريكان أن يموتوا جوعا وبؤسا وعريا ، ارضاء لحفنة من المرابين :

انا نظلم « الديموقراطية » حين ننسبها ظلما وعدوانا الى المتآمرين على الشعوب ، الذين يتاجرون بالمبادىء ، ويدنسون طهارة المثل .

لقد كثر الحديث ، فى عصرنا عن الديموقراطية ، وكثر المتشدقون بهذه الكلمة ومن واجبنا اليوم ان نميط اللثام ، عن وجه أولئك المتشدقين ، وأن نبين للناس الفوارق بين ديموقراطية مزعومة ، وبين ديموقراطية صحيحة ،

هى ديموقراطية الاسلام ، ذلك الدين الذى أراده الله نظاما للحياة المثلى ، ومطهرا للنفس الانسانية من ادرانها وشوائبها .

ان الرجعة العابرة الى التاريخ الاسلامى ، تظهر تلك الفوارق بوضوح وجلاء فالديسوقراطية الحديثة كلمة جوفاء ، حشوها هواء ، ومبادئها هراء ، أما ديموقراطية الاسلام فسلوك انسانى رفيع يرتكز الى أنبل ما فى النفس الانسانية من نزعات ، انه يقوم على دعائم الحق والحرية والعدل والمساواة .

فأين ديموقراطية اليوم من ديموقراطية ابن عبد الله ؟ ذلك اليتيم الأمى الذى انبتته الصحراء وهيأته الأقدار لانقاذ العرب من ظلمات الجهل والفوضى والضغينة .

ديموقراطية محمد :

لقد استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يدحر قريشا ، بعد ما ارغمته هى على أن يخوض معهــا معركة حيــاة أو موت ، استطاع أن ينتصر على عنجهيتها باتباعه القلائل الذين لاسلاح لهم : الا الايمان بالله ، والتضحية بكل شيء فى سبيل العقيدة ، فماذا فعل محمد بقريش التى عذبته وآذته وأدمت قدميه ، ورجمه سفهاؤها فى الأمس القريب ، بالحجارة ؟

أتراه سيتيح للسيوف العطشى أن ترتوى من دمائهم ؟

اتراه سينتقم للضحايا التى ارداها الظلم والتعذيب ؟

اتراه سينسى كيف ارغموه واتباعه على الهجرة مرتين ، وكيف حاصروه فى الشعب حتى اضــطر هو وهؤلاء الاتبـــاع ان يأكلوا العشب ويتغذوا بأوراق الشجر !

كلا ان محمدا لم يبعث ليؤجج نار الضغينة . ولم يرسل ليعطى الأماثيل فى الانتقــام والثأر ، لذلك وقف بين الكفار من قومه وكلهــم مطرق أمام

الفاتح المنتصر وقف ليسألهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟

ولاحظ ابن عبد الله أن بعضهم يرتعد فزعا ، وقرأ فى عيون الكثيرين منهم أنهم يتوقعون منه أن ينزل أشد العذاب والتنكيل جزاء ما قدموا ، فأحب أن يحقق قول الله فيه : وانك لعلى خلق عظيم .

لقد قال لقومه الذين عذبوه وعذبوا اتباعه ما لم يقله فاتح فى التاريخ لأعدائه ، قال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وذهب الطلقاء مشدوهين ، وادركوا عندئذ ان رسالة محمد هى رسالة الحق والخير والمحبة والسماح .

واليكم قرائى الأعزاء جانبا آخر من ديموقراطية محمد صلى الله عليه وسلم :

ان الرسول العظيم الذى سيطر على جزيرة العرب لم يداخله الكبر يوما .. ومعاذ الله ان يداخله شيء من هذا ، لقد كان باستطاعته أن ينعم من الدنيا بما شاء وتشتهى نفسه . كان باستطاعته أن يحيا حياة الملوك والقياصرة . كان بامكانه أن يتمتع بموارد الدولة التى أقامها بجهادة ونضاله . ولكن معاذ الله أن يزل محمد أو يتبدل ، فلقد ظل وهو الرسول العظيم وسيد قريش وزعيمها السياسى الأكبر ، ظل يخصف نعله ويحلب شاته ويرقع ثوبه ، ويحيا حياة المتقشفين الزاهدين لأنه يعرف تمام المعرفة أنه المثل الأعلى للرعية ، وان المثل يجب أن يظل على سموه ليظل مثلا أعلى .

ليسمع عظماء اليوم :

قد يقول قائل : تحدثنا عن ديموقراطية محمد ، ومحمد نبى حلاه الله بأخلاق الأنبياء ، فلا يمكن أن يصدر عنه الا ما هو خير وحق وعدل ، فدلنا على الديموقراطية عند اتباع محمد .

أجل قرائى الأعزاء ان محمدا نبى بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، فتعالوا معى الى فرائد التاريخ الاسلامى وكنوزه ، نستخلص منها الشواهد على ديموقراطية المؤمنين بمحمد .

لقد انتقلت أعباء القيادة الدينية والزمنية بعد وفاة الرسول الى أبى بكر الصديق ، فأنفذ أسامة بن زيد على رأس جيش الى الشام ، وزوده بهذه الوصية التى يجب أن تكون دستورا للناس فى القرن العشرين : قال أبو بكر لجنود أسامة .

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له » .

الا فليسمع جزارو القرن العشرين ، ليسمع أولئك الذين ازهقوا مئتى ألف نفس بشرية بريئة بقنبلة ذرية واحدة ، محت من الدنيا مدينة « هيروشيما » .

ليسمع أولئك الذين لم يرحموا طفلا ولا شيخا ، ولا امرأة .. فى المغرب العربى ليسمع أولئك الذين اتخذوا الغدر ديدنا وخطة .

ليسمع أولئك الذين يرون النصر كل النصر فى احراق الأرض وما عليها . وتدمير ما أقامه جهد الانسان فوقها .

ليسمع أولئك الذين تلعنهم كل شجرة مثمرة قطعوها ، وكل روح دابة ازهقوها .

ليسمعوا وليتتلمذوا على الاسلام .. الذى أراد ان يحفظ للانسان كرامته حتى فى ساحات الحروب .

صفحة ناصعة :

لنقلب صفحة ثانية من صفحات تاريخنا .. فهذا عمر بن الخطاب يتولى شؤون المسلمين ، فيشعر منـذ اللحظة الأولى التى تنتقـل اليه فيها أعباء القيادة ، بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه ، فيصمم ان يرضى الله ورسوله وضميره والشعب .

ولكى نصـور ديموقراطية ابن الخطاب نحب أن نذكر هـذه الحادثة البسيطة التى تحمل فى مطاويها أعمق معانى الديموقراطية وأسمى مظاهر الانسانية :

لقد كان عادة هـذا الخليفة العظيم أن يتفقد أحـوال الرعية متنكرا متسترا بظلام الليل وصدف ان سمع فى احدى جولاته الليلة صبية يبكون ، فأحب أن يستطلع الأمر ، وسرعان ما توضحت له خطوط المأساة .

لقد رأى عجوزا تضع قدرها على النار ، وصبيتها من حولها يضجون . انهم جياع يقض الطوى مضاجعهم ، وليس فى الكوخ ما يسـد الرمق ، وليس باستطاعة العجـوز المسكينة أن تتغلب على البؤس الـذى يصارعها ويصارع صغارها ، فلجأت الى الحيلة تخدع بها الصبية دون أن يتاح لها أن تخدع الجوع .

ووضعت على النار قدرا وملأته ماء وتركته يغلى . وكانت كلمـا ألح صغارها فى البكاء تسرف فى تهدئتهم ، وايهامهم أن الطعام المؤمل قارب أن ينضج ، علهم يلتهون بالوعد عما هم فيه فيناموا .

رأى الخليفة هذه المأساة الحية ، ففاضت عيناه بالدموع ، وسارع الى بيت المال فحمل على ظهره كيسا من الدقيق ، وقصد بيت العجوز التى تخدع صبيتها ، فقرع بابها وألقى الكيس بين يديها ، ثم باشر فى اعداد الطعـام لصغارها . وكان كلما خبت النار أو كادت ، ينحنى عليها لينفخ فيها ، فيتطاير رمادها الأغبر ، ليتخلل لحيته ، ويملأ عينيه ، حتى اذا نضج الطعام وأكل الصبية استراح ضمير عمر .

هل فى تاريخ الأمم التى تتشدق اليوم بالديموقراطية أمثولة كأمثولة عمر .

أمثولة رائعة :

وما دمنا نتحدث عن الديموقراطية .. فاليكم أيضا هذه القصة التى يرويها التاريخ باعتزاز عن ابن الخطاب .

اعتلى عمر المنبر مرة ليخطب الناس فقال : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا . فانتصب من بين المصلين بدوى رث الهيئة زرى المنظر ، وجابه خليفة المسلمين قائلا : لا سمعا ولا طاعة يا عمر .

وثارت ثائرة المصلين ووثبوا الى البدوى الجلف يريدون أن يحسنوا تأديبه ، وأن يعلموه كيف يخاطب أمير المؤمنين . ولكن ابن الخطاب يصيح بهم : دعوه !

.. وهدأت الضوضاء ، وبقى بريق العيون الغاضبة الحانقة ينصب مخيفا مرعبا على رأس البدوى .

وسأل عمر البدوى المتمرد الذى لا يريد أن يسمع ، ولا يريد ان يطيع ، سأله برفق : ولم يا أخا العرب ؟

وارتفع صوت البدوى متهما ، قال للخليفة ما معناه : لقد وزعتم الحبرات اليمانية التى غنمناها فأصاب المحارب منا حبرة من هذه الحبرات ، وقد حاولت وأنا المتوسط القامة ان اجعل منها ثوبا لى فلم تكفنى ، وهاأنذا آراك وأنت الرجل الطويل الفارغ ، ترفل بثوب من تلك الحبرات .

وسكت البدوى .. وظل صدى صوته يصفع ابن الخطاب بهذا السؤال : من أين لك هذا ؟ من أين .. يا عمر ؟

ومرة ثانية يثور الضجيج . فالبدوى الوقح يتهم أمير المؤمنين ، يتهمه بالاثرة والتوسيع على نفسه من مال الأمة . يتهمه بأنه يأخذ من الغنائم ! أكثر مما يأخذ المجاهدون .

ومرة ثانية يهدىء ابن الخطاب من ثورة الغاضبين ، ويبتسم للاتهام الخطير ، ابتسام الواثق من البراءة ثم يلتفت الى ابنه عبد الله قائلا :

اجبه يا عبد الله !

ويقف ابن الخليفة ليعلن على الناس كيف لبس أمير المؤمنين ثوبا من الحبرات اليمانية التى لا تكاد الواحـدة منها تكفى لثوب رجل واحد ، وأوضح لهم انه تنازل عن نصيبه من الغنيمة لوالده فجعل من الحبرتين معا ثوبا له .

واقتنع الاعرابى المتشكك بعدالة الخليفة ، وأدرك أنه أسرف فى سوء الظن ، فاغرورقت عيناه ، ووقف وهو يحبس الدمعة بين أجفانه ، ويقول باجلال واكبار : الآن سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين :

اختيـــار الحكام :

وكان عمر اذا اســتعمل الولاة على الأمصار ، يقــول لهم : انى لم استعملكم على أمة محمـــد ولا على اعشارهم ولا على ابشـــارهم ، وانما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقضـــوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، فاذا خالف الأمير الوصية ، فشتم أحدا من الرعية ، أو ضربه ، أو حابى أحدا فى العطاء ، أو صانع أحدا فى القضاء ، أو احتجب عن الناس وتهاون فى خدمتهم ، كان لعمر معه موقف ينتهى دائما الى الاقتصاص للرعية من الأمير أو مصادرته أو عزله ، أو الى هذا كله .

والواقع ان أكثر العمـــال الذين عزلهم عمر انما عزلهم لخيـــانتهم فى الأموال العامة ، أو لاستطالتهم على الرعية ، أو لعجزهم عن خدمة الشعب ، ولكنه لم يعزل عاملا لمجرد ان اجتهـــاده فى الأمور مخالف لاجتهاد عمر ، وانما كان يراقب عماله ، وينصحهم أحيانا ، ويأمرهم أحيانا ، لقـــد كان عمر « محكمة تمييز » بالنســـبة لهم .. لا تمنـــع الاجتهاد ولكنها تمنع ســـوء

الاجتهاد ، ومن الحق أن نقول ان مراقبته لعماله كانت شديدة الوطأة ، وكان يتدخل فى كل كبيرة وصغيرة ، لأنه كان يعد نفسه مسؤولا عن عماله ، متحملا لأوزارهم .

فقد كان يجمعهم فى موسم الحج ، ليحاسبهم ولينظر فيما عملوه طول السنة . وليصغى الى شكاوى الرعية منهم ، وكان اذا ثبت له أن الأمير ضرب أحدا من الناس ، أعطى المضروب درته وقال له : هلم اقتص من الأمير .

وكان اذا بعث بعامل يشترط عليه ان لا يركب برذونا ، والا يلبس رقيقا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يتخذ حاجبا .

وقد بلغه مرة ان عامله على البصرة خالف هذه الوصية ، فكتب اليه : بلغنى أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ، ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها ، فاياك يا عبد الله ان تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب ، فلم يكن لها هم الا السمن وانما حتفها فى سمنها .

محاسبة الولاة :

وأخبر ان عامله على مصر يلبس الرقيق ، ويتخذ الحاجب ، فأمره عمر بالقدوم عليه ، فلما رآه قال : انزع قميصك ، ودعا بمدرعة صوف ، وبربيضة من غنم وعصا ، وقال له : البس هذه المدرعة ، وخذ هذه العصا وارع هذه الغنم ، أسمعت ؟ قال نعم ، والموت خير من هذا .

وسأل أهل حمص عن أميرهم عبد الله بن قرط فقالوا : خير أمير : الا انه قد بنى علية يكون فيها ، فأمر أحد رجاله فجمع حطبا واحرق باب علية الأمير .

وكتب الى سعد بن أبى وقاص أميره على الكوفة ، وكان استأذنه فى بناء بيت يسكنه : « ابن ما يسترك من الشمس ويكفيك من الغيث » .

وكان عمر ينهى عماله عن قبول الرشوة ، ويمنعهم من التجـارة . فمن اتجر قاسمه ماله . ومن عمالهالذين صادرهم ، ابو هريرة عامله على البحرين . فقد اخذ منه ما ربحه من التجارة وجعله فى بيت المال ، فليس من شأن الامراء أن يشتغلوا بالتجارة ويزاحموا الرعية فى عملها ورزقها .

وطلب عمر فى زيارته للشام ، أن ترفع اليه اسماء الفقراء ، فرفعت اليه رفعة فوجد فيها اسم سعيد بن عامر أميره على حمص ، وكان أهل حمص قد شكوه الى عمر وقالوا : انه لا يخرج اليهم حتى يتعلى النهار فسأله عمر عن ذلك فقال :

نعم ،فليس لأهلى خادم ، اعجن عجينى حتى يختمر ، ثم اخبز خبزى ، ثم أتوضأ ثم اخرج اليهم .

بين عمر وعامل حمص :

واستعمل عمر على حمص « عمر بن سعد » ثم كتب اليـه : ان يقدم عليه . فقدم ماشيا ، حافيـا ، معه عكازته وادواته (١) ومزودة وقصعته على ظهره ، فعجب عمر من حاله وقال له يا عمر أخنتنا أم البلاد بلاد سوء ؟ فقال : يا امير المؤمنين أما نهاك الله عن سوء الظن وما ترى من سوء الحال وقد جئتك بالدنيا أجرها برقابها ؟

قال عمر : وما معك من الدنيا : قال : عكازى اتوكأ عليها وادفع بهـا عدوا ، ان لقيته ، ومزودى أحمل فيه طعامى ، وادواتى هذه احمل فيها ماء لشربى وصلاتى ، وقصعتى هـذه أتوضأ فيها واغسـل رأسى . فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد الا تبعا لما معى .

ما قرأت مثل هذه الاخبار المنتشرة فى زوايا تاريخنا العربى الرائع ، الا وتواثبت فى ذهنى ، صور من المقارنة بين اولئك الاجداد ، وهؤلاء الاحفاد ، بين ولاة الامس واولياء اليوم ، الذين يعتبرون الخدمة العامة وسيلة للاثراء

والكسب غير المشروع ، والذين يعتبرون الاموال العامة ، رزقا مستباحا يحل لهم أكلها بالباطل ، والذين تسهويهم مظاهر السلطان الزائل فلا ينقلون الا بموكب ، ولا يتحركون الا بضجيج يصطفونه حولهم ليضفى عليهم هالة من العظمة ، والأبهة الفارغة ، والوقار السخيف .

لقد كانت العدالة عند اجدادنا ، هى الجند الحارس الامين لذى السلطان يحتمى بها ، ويستظل بظلها . اما اليوم ، فالبنادق التى لا تنام ، والجند المدجج لذى لا يستقر ، ولاسوار التى لا تقهر ، هى الحرس الذى يجنده الحاكم لحماية نفسه من مظالمه . هذه المظالم التى يزرعها فى كل مكان فلا يحصدها الا نقمة وثورة ولعنة فى اهون الاحوال .

ديموقراطيتنا وديموقراطيتهم :

لقد ضربت لكم — قرائى الاعزاء — فيما سبق الامثلة على ديمقراطية الاسلام فى كل مجلى من مجالى الحياة ، وسأحاول ان استعرض معكم بعض « العينات » من ديمقراطية الغرب .

لن ارجع بكم القهقرى الى العهود التى كان الغرب يرزح فيها تحت وطأة الجهل والهمجية ، فستقولون ان الديمقراطية لا يمكن ان تنشأ فى كنف الجهل ، ولا يعقل ان تترعرع فى ظل الهمجية .

لن احدثكم عن محاكم التفتيش فى اسبانية ، وعن تلك المجازر الرهيبة التى اقترفها الوحش الهائج وقضى بها على مئات الالوف من العرب ، لا لذنب الا لانهم حملوا الى الغرب رسالة النور والتهذيب والسمو والتمدين .

ولن احدثكم عن ذلك الحقد الوحشى ، الذى دفع بالكتائب العطشى الى الدم ، فانطلقت باسم المسيح ، تدنس مقر المسيح وتقوض دعائم المحبة التى اقامها ، وتنشر الدمار فى أرض السلام التى اراد لها أن يظللها غصن الزيتون .

لن احدثكم عن ذلك ، وانما سأضرب صفحا عنه ، وانتزع امثلتى من عصور النور ، من العصور التى بلغ الغرب فيهـا ذروة الرقى المادى وهوى فيها مع الاسف ، الى اسفل دركات الانحلال الروحى .

ماذا تفعل فرنسا :

يعلم الجميع ان فرنسا ، ما لبثت منذ ثورتها تدل على الدنيا ، بما طلعت عليها من مبادىء قررت حقوق الانسان . فتعالوا نتتبع ديمقراطية فرنسا ، أم الحريات .. تعالوا نتفحص سلوكها تجاه الشعوب لنلمس الخدعة الكبرى ، التى اختبأت وراء البرقع الحريرى الرائع .

أليس من المضحك حقـا أن ترتفع عقيرة فرنسـا مثلا لتردد على مسمع الدنيا ، أسطوانة أمجادها ، ولتتغزل بالحريات وكرامة الانسان ، ثم تنكفىء لتنكل بالحريات ولتنتهك ــ بكل استخفاف ــ كرامة الانسان .

مجازر الجزائر :

لن أذكركم بفظائعها فى ســورية ولبنان ، وكلنا ما زال يذكـر كيف غرست أرضنا مآسى ، وانما أود أن انقـل اليكم شهادة وردت على لســان أديبين فرنسيين معاصرين ، اصدرا مؤخرا كتابا عن الجزائر سمياه « الجزائر الخارجة على القانون » وقد نشرت مجـلة الآداب البيروتية ملخصا له فى عددها الصادر فى آذار ١٩٦٥ ، فاستمعوا بالله عليكم الى «كوليت وفرنسيس جونسون » يؤديان امام التاريخ هـذه الشهادة ، ويعطيان بعض الأمثلة عن بطش فرنسا بالجزائريين فيقولان :

« فى مساء السادس من نيسان ١٨٣٢ يوجه القائد ROVIGO حملة على قبيلة « أليفا » فى الجزائر فيذبح جميع اهليها ، دونما تفريق بين شيخ أو طفل ، بين امرأة أو رجل ، ويحمل الظافرون بعد ذلك رؤوس القتلى على رماحهم » .

« وفى تشرين الاول من عام ١٨٣٦ ترسل الرؤوس كما ترسل الهـدايا وتباع الماشية ، لقنصل الدنمارك ، ويعرض باقى الغنيمة فى سوق باب الزون حيث ترى أساور النساء ، وهى ما تزال فى معاصمهن المقطوعة ، واقراطهن المتدلية من قطع آذانهن ، ويتوزع الظافرون الصفقة ، ويؤمر سكان مدينة الجزائر بعد ذلك باشعال النار فى حوانيتهم ابتهاجا بهذا الحادث السعيد » .

« ذلك ان الفرنسيين المعتدين ، اخذوا يتذوقون حملات الافناء هذه ، وقد خلق لدى محاربيهم ذوق خاص ، للاستمتاع بفنون التعذيب والتقتيل ، وفرض الغرامات المالية فوق ذلك ، بل خلق لديهـم ولوع خاص بالغـدر والضحك من الوعود والاستهزاء بالعهود والحدود ، فهذه قبيلة تعذب بعد أن اعطيت وعدا بأن تصان ، فيسلب منها أولا مائة الف فرنك ، وتؤخذ أملاكها دون تعويض ، بل يكره بعض المالكين على ان يغادروا منازلهم ، لتخرب بعد ذلك ، وليدفعوا نفقات تخريبها ، بل نفقات تخريب الجامع هناك ، وهـذه معابد وجوامع وقبور وحرمات تدنس وتنتهك ، وها هم أولاء اتباع الحاكم BUGEUT يتغنون عام ١٨٤٢ بالحـرائق التى شهدوا نارها الجميلة فى قرى : بنى مناصر ، وبنى سالم ، وبلقاسم » .

فظائع مريعة :

ويتابع المؤلفان سرد فظائع فرنســا قائلين : « وهكذا يتردى الفاتحون فى مجون الفتح ، فيتلاعبون بالانفس تلاعبهم بصيد ، ويشرون الضحايا كما تشرى طيور البر ، فيدفع ثمن زوج من آذان المواطنين عشرة من الفرنكات ، ويبحثون خاصة عن صيد النساء ، فهو عندهم صـيد رفيع كامل يحتفظون ببعضه ، ويساومون على بعضه الآخر مقابل الخيـل ، ويبيعون بعضه بالمزاد العلنى .

وأجمل بدعهم حرق الجماعات . واليكم وضعا موجزا للحريق الذى أمر

به ، عام ١٨٤٥ ، وأى قلم يستطع وصف ذلك المشهد ، كما يقول أحد الجنود الذين وصفوه :

« فى قلب الليل وفى ضوء القمر ، ترى فريقا من المحاربين الفرنسيين مشغولين بايقاد نار جهنمية ، وتسمع الأنين الاصم من رجال ونساء وأطفال وبهائم ، وتصل اليك أصوات الصخور وهى تتفتت ، وفى الصباح تدخل الكهوف الثلاثة التى أحرقت ، فترى فى مدخلها الثيران والحمير والخراف ، وبين هذه الحيوانات ، وتحت أرجلها تجد الرجال والنساء والاطفال ، وتشهد بعينيك رجلا ميتا ركبته على الأرض ، ويده ما تزال ممسكة بقرن ثور ، وامامه امرأة تحمل صغيرها على ذراعيها ، وتعد القتلى فى هذه المغاور الواسعة ، فتبلغ عدتهم ٧٦٠ جثة » .

شاهد من أهله :

هذه شهادة يؤديها فرنسيان . وقد استقيا معلوماتهما عن تقرير لجنة التحقيق التى قامت بأعمالها بين ايلول وتشرين الثانى عام ١٨٣٣ . فلننتقل الى عصر الذرة فماذا نجد ، ان الاساليب نفسها ماتزال تستخدم ، والارهاب الفرنسى فى المغرب العربى كان يعتمد على خطة واضحة يعتبرها أنجح الوسائل للقضاء على روح المقاومة ، ألا وهى الافناء . واليكم قصة تناقلتها الصحف ووكالات الانباء ، فى بدء الثورة المغربية الاخيرة .

لقد جمع الفرنسيون جميع سكان احدى المدن الجزائرية وصبوا البترول على وجه الماء فى المستنقعات القريبة ، ثم امروا الجموع بالتوجه الى هذه المستنقعات ، وعندما لاحظوا ترددها فتحوا عليها نار البنادق والمدافع الرشاشة ، فاندفع الناس الى الماء ، يحتمون به من الرصاص ، حتى اذا غصت المستنقعات بالرجال والنساء والاطفال ، أشعل المستعمرون النار فيها ، ولم يكد ينتصف النهار ، حتى كان عدد الذين قضوا بهذه الطريقة ، غرقا وحرقا وقتلا يزيد على السبعين الفا .

وأى شاهد على ديمقراطية فرنسا ابلغ واصدق ، من هذه الحرب الافنائية ، التى كانت فرنسا على الجزائر .. وتحشد مئات الالوف من الجند ، وكل ما لديها من قوى الجو والبر والبحر .

ماذا تفعل بريطانيا :

وهاك ايضا مثالا صغيرا على ديمقراطية بريطانيا ؟

اسألوا ثرى النيل ، وساحات بغداد ، وربوع الهند ، بل اسألوا فلسطين الشهيدة ، اسألوا مليون متشرد عربى ، أرادت لهم ديمقراطية الانكليز ان يموتوا جوعا وبؤسا وعريا ارضاء لحفنة من الافاقين وحثالات الشعوب .

اسألوا طبريا وحيفا واللد والرملة ودير ياسين ، اسالوا تاريخ دنيا العرب يأتكم الجواب صريحا لاغموض فيه ولا ابهام : ان نكبة العرب الكبرى من صنع الانكليز ، فهم اساتذة فى فن الخيانة والتدجيل على الشعوب ، والتنكر للعهود والمواثيق وازدراء كلمة الشرف ، وظلوا يناصبون أمة العرب العداء ، يحيكون لها الدسائس ، كلما جمعت عزمها ، وحاولت أن تنهض من كبوتها ، وأن تقف على قدميها .

ماذا تفعل أمريكا :

قد يقول قائل وما قولك بديمقراطية الأميركان ، حماة الحريات الأربع ونافحى الانسانية أمثال : واشنطن ولنكولن وسواهما ؟ لن آتعرض — قرائى الاعزاء — جوابا على هذا التساؤل ، الى الدور الانسانى اللاديمقراطى، الذى ما برحت أميركة تلعبة منذ ربع قرن تقريبا والذى مثل فيه الرئيس ترومان فصلا رهيبا .

لن اتعرض الى المجزرة التى أثارتها أميركة فى كورية ، ولن أبين مدى مساهمتها فى نكبة فلسطين . فقد يكون فى التعرض الى هـذه الامور ، ما يحمل الشك بأننى أعطى الحكم مشوبا بعيب التحيز ومآخذ الانفعال .

ولكننى أود أن أبحث ديمقراطية الاميـركان ، من زاوية أخـرى ، وأنا مقتنع تمام الاقتناع بأن المهزلة الكبرى : مهزلة الحريات الاربع . ومبـادىء ولسون لم تعد تغنى الاميركان شيئا بعد اليوم .

أمثلة من ديموقراطية أمريكا :

ان أمريكا التى تعتز بحرياتها الأربع . هى اليوم موطن العبودية .. موطن التمييز العنصرى .. فى زمن انهارت فيه كل العبـوديات ، بما فيها الألوان .

واليكم بعض الامثله :

لا تزال فى امريكا بعض المناطق يحرم على الزنوج دخولها . وبعض الأماكن لا يباح لهم ارتيادها ، وقد حرمت قوانين بعض المقاطعات الأميركية على الزنوج أن يركبوا القطار أو الأوتوبيسات التى يركبها البيض .

ومن منا لم يقرأ مأساة الطالبة الزنجية ، المسز « أرثولوسى » ، تلك الفتاة المسكينة التى أقامت مشـكلتها أميركة ولم تقعدها فترة طويلة من الزمن . لقد دفعها حب العلم والرغبة فيه الى أن تقصد جامعة تكساس ، وأن تعمل بكل الوسائل على الانتساب اليها ، وقد تمكنت بعد جهد من الوصول الى بغيتها ، ولكنها ما كادت تنجح فى ذلك ، حتى أعتبر الاميركيون قبول زنجية فى جامعة « أميركية » اهانة لا تغتفر لكرامتهم ، وقامت المظاهرات احتجاجا على ذلك ، وانفلت الناس هائجين ، مطالبين باخراجها من الجامعة ، ومعاقبة المسؤولين ، الذين مهدوا لها السبيل وأتاحوا لها الدخول .

ونزلت الجامعة عند ارادة الاميركيين « حماة المدنية » فطردت الطالبة ، وعندما تطوع أحد المحامين للدفاع عنها ، ولتبنى قضيتها ، انهالت عليه كتب الاستنكار والاحتجاج ، والتهديد بالقتل ان هو استمر فى غيه ، وفى تدنيس الشرف الأميركى الذى لا يرضى أن يزامل الأبيض زنجى .

اللون المحرم :

واليكم — قرائى الأعزاء — حادثة آخرى بسـيطة .. ولكنها قوية الدلالة ، رائعة التعبير نشرتها الصحف مؤخرا ، وهى ان دلت على شىء فانما تدل على نمط جديد من ديمقراطية الأميركان .

لقد غصت قاعة مسرح « برمنغهام » فى احدى الليالى بالرواد ، وقد جاؤوها للاستماع الى المغنى الزنجى المشهور « ناث كول » وما أن صعد المغنى خشبة المسرح حتى ثار الاميركيون البيض ، الذين كانوا فى القاعة ويقدر عددهم بـ ٣٥٠٠ شخصا ، وتقدم منهم عشرات فهاجموا المغنى وانهالوا عليه ضربا ولكما ، لا لسبب الا لأنه زنجى .

قد يعتقد الكثيرون ان التمييز العنصرى غير قانونى فى أميركا .

فاليكم هذه الحادثة الثالثة : لقد مرت احدى الفتيات « الطائشات » فتيات الشارع الأميركى ، وما أكثرهن ، أمام فتى زنجى مراهق ، فانتشى المسكين وراعه الجمال المتبرج المستهتر ، فند من بين شفتيه صفير اعجاب .

أفتدرون ماذا كان جزاء الفتى ؟ لقد هجم عليه شابان أميركيان وانهالا عليه طعنا بالمدى حتى لفظ أنفاسه ومات من يومه . الى هنا والأمر عادى بالنسبة للأميركان ، ولكن أتدرون ماذا كان جزاء القاتلين ؟

لقـد أعلنت المحكمة براءتهما ورفضت حتى تغريمهما بجزاء نقـدى ، لا لشىء الا لأن المغدور زنجى تحرش ببيضاء .. ولم يشفع له ان الفتاة

لعوب ، وانها من فتيات الطريق ، وانه لم يزد على « ابداء اعجابه بها » .

لا وجود للديموقراطية :

أبعد هذا كله يحق للغرب ، أن يتشدق بالديمقراطية ؟

أهى ديمقراطية حقا ، أن يحارب الغرب الأحرار فى كل مكان ، وان يخنق الحرية فى كل أرض ؟

أهى ديمقراطية حقا ، ان يحصد رصاصه الغاشم ، طلاب الانعتاق انى كانوا ؟

أهى ديمقراطية حقـا ، ان تتآمر دول الغرب على كل شعب ضعيف لتتقاسمه تحت سمع هيئة الأمم وبصرها وبمعرفتها ، وتسرق خيراته باسم الديمقراطية وحماية الحريات ، وتحرير الشعوب ؟

أهى ديمقراطية حقا ، ان تتساند هذه الدول ، كلما أرادت أمة مظلومة من أمم الشرق ، ان ترفع الكابوس عن كاهلها ، والنير عن عاتقها ، فاذا ذئاب الغرب لها بالمرصاد ، يخنقون كل انتفاضة ، ويكبتون كل حركة ، ويصعقون كل مناد بالتحرر ، أو عامل لوحدة الأوطان ؟

انبعاث الديموقراطية العربية :

ليعلم المتشدقون بالديمقراطية ، ان العرب والمسلمين ، قد استفاقوا اليوم ، على الحقيقة الرهيبة والواقع المر ، وانهم باتوا يدركون ماذا تعنى هذه الكلمة ، حين يتغنى بها الغرب ، ويترنم باسمها . انهم يعرفون انها المصيدة ، التى ينصبها العدو الماكر ، للطريدة الساذجة . ولم نعد والحمد لله سذجا يسهل ايقاعنا فى الشراك وحبائل المصائد .

ان الديمقراطية التى نؤمن بها ، ونعمل لها ، هى ديمقراطية الاسلام ، الاسلام الذى أعطى أمثال الخلفاء الراشدين وســواهم من الأبطال الذين اسهموا فى تقدم الانسانية ، ورفاه البشرية ، وملأوا الدنيا عدالة ومحبة ، وأخوة ومساواة ، ونشروا فى الأرض الطمأنينة ، والحق والسلام .

الاشـــتراكيـــة الإســـلاميـــة

* الاســلام أبو الاشـــتراكية قبل ماركس وانجلز واضرابهما ، وهو الذى نادى بالاشتراكية المنظمة ، وقضى على الطبقية ، وألغى فروق اللون والجنس والدم ، وفتت الملكية الواسعة ، ورسم المناهج للقضاء على الفقر ، وجعل هذه المناهج ركنا من أركانه .

* الاعتدال صفة ملازمة للاسلام فى تشريعاته المالية ونحن لا نطالب بالتقشف ، ولا بالحــرمان ، ولا بشظف العيش ، ولكننا ننعم بالحياة ونستمتع بطيباتها دونما ترف ولا اسراف .

* ان المسؤول ، حين يحفظ للعامل حقه ، ويصون مستقبله ، ويسيجه من عوادى الزمن ونوازله ، انما يؤدى عبادة لله ، عبادة ليس السجود والركوع قوامها ، ولا الذكر والأوراد شـــكلها ، بل قوامها صيانة الحقــوق والعمل بروح الاسلام ، وأوامر الله .

فى هذه الغمرة من الصراع العقــائدى الذى يجتاح العالم يبدو ان الاشتراكية هى النظام الذى سيكتب له النجاح ، كوسيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية التى ينادى بها الناس ، وكقاهر جبار لذلك التراتب الطبقى الذى كان وما زال بذرة الحقــد المدمر ، المودى بالحضـــارات ، وبكل ما يبنى الانسان من خير وحق وجمال .

وقد وقف الناس فى شرقنا العربى من الاشتراكية مواقف مختلفة ،

فمنهم من تعامى عن حسناتها كلها ، واعتبرها شرا محضا . وهؤلاء هم الرأسماليون وأنصاف الرأسماليين ، ومنهم من أرادها متطرفة جارفة حاقدة ، بل شيوعية بكل الظلال العلمية للكلمة . وهؤلاء هم الذين لا يؤمنون بالاعتدال . ومنهم من وقف يحاربها باسم الدين ، والدين براء من منطقه ، ومنهم من شوهها ، واتخذها ستارا لجر المغانم وكسب الأمجاد الرخيصة .

ولا يعنينا من هذه المواقف الا واحد . هو موقف أولئك الذين يحاربون الاشتراكية باسم الدين ، ويناهضونها زاعمين انها تناقض جوهره ولا تأتلف مع تعاليمه .

هذا ما سنحاول بحثه الآن .

الاشتراكية قبل ماركس :

قبل أن يكون ماركس وانجلز وسواهما من فلاسفة الاشتراكية . كان الاسلام أبا للاشتراكية ، وكان محمد بن عبد الله امامها الأول :

الاشتراكيون أنت أمامهم   لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة   وأخف من بعض الدواء الداء
انصفت أهل الفقر من أهل الغنى   فالكل فى حق الحياة سواء

فلقد جاء الاسلام والناس فوضى ، والطبقية المشينة تجلد بسوطها الكافر كرامة الانسان فأراد الدين الجديد أن يعيد للانسان كرامته المسفوحة ، وان يقيم بين الناس علائق أساسها المحبة ، وقاعدتها الأخوة ، وركنها العدالة ، ولم يكتف بهذا الوجه من الاصلاح بل تجاوزه الى الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى . فالى أى حد استطاع الاسلام أن يكون اشتراكيا فى سائر وجوه الحياة ونشاطاتها ؟

الاسلام والرأسمالية :

رأى الاسلام أن الفقر أساس كل مشكلة ، وأنه هو الـذى يقيم نظام الطبقات وينمى الحقد الطبقى ، فنادى بالاشتراكية المنظمة التى تقضى على الفروق المادية القائمة بين الناس ، وجعل للفقـراء حقا معلوما فى أموال الأغنياء :

« والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وفرض على الأثرياء الموسرين أن يخرجوا زكاة أموالهم ، ويعطوها للفقراء والمحتاجين ، لا كصدقة تذل كرامة الفقير وتطعن كبرياءه ، بل كحق له مفروض ، ونصيب له معلوم .

وبذلك كانت فريضـة الزكاة ركيزة اشـتراكية ضـخمة للمجتمـع الاسلامى ، اذ انها أقامت التوازن الاقتصادى بين الطبقات ، وهى تشبه الضريبة المفروضة فى عصرنا الحديث على رأس المال مع فارق واحد هو أن الضريبة الطوعية « الزكاة » كانت أشمل من الضريبة الجبرية على رأس المال ، فهذه تتناول الرأسمال فقط ، أما تلك فتتناول الحلى والجواهر ، والعقارات وكل ما يمكن ان يمتلكه الانسان .

ان المال فى نظر الاشتراكية ملك الدولة . أما فى نظر الاسلام فهو ملك الله ، يتصرف به الانسان فى حدود المصلحة العامة أولا فمصالحه الخاصة ثانيا ، فان أساء التصرف بالبخل أو التبذير أو سوء الاستعمال ، أوجب الاسلام على الدولة مصادرة المال واعادة توزيع الثروة العامة حسب المقتضيات والأحـوال .

ولم يحم الاسلام الملكية الخاصة الا لأنه وضع من ناحية ثانية ضوابط لها ، تكفل بقاء التوازن الاقتصادى دائماً .

وهذه الضوابط هى : الزكاة ، والوقف ، وقانون الوراثة ، وتحريم الاسراف والتبذير والفائدة والربا ، ومبدأ المصالح المرسلة ، ومبدأ شيوع الموارد العامة ، ومبدأ تحريم الترف والاسراف ومبدأ تحريم الكنز .

تشــابه نظام الوقف والنظام الاشتراكى :

ان نظام الوقف يعنى ابقاء عين الأرض محبوسة على الجهة المعينة لها الى قيام الساعة ، فلا يمســها تصرف ما ، أما غلتها فتنفق فى الوجوه التى حددت لها ، من وجوه الخير الموجودة أو التى ستوجد . وهذا يعنى أن الفقه الاسلامى ســمح بان يحبس أصــل الأرض ، وان تبــذل ثمــارها للمستحقين . وهــذا ما توسع الشيوعيون فى تطبيقه وتنفيــذه ، فأصبحت الأرض ، كلها ملكا عاما لا يتناولها بيــع ولا ارث ، وأصــبح الشعب كله مستحقا فيها .

نظام الوراثة :

أما الارث ، فهو نظام استطاع به الاسلام أن يحطم الرأسمالية ، ويفتت الملكية الواسعة ويجزىء التركة أرباعا وأثمانا وأثلاثا ، وقد رأى حزب العمال الانكليزى فى برنامجه الاشتراكى ان يتجه بالمواريث هذه الوجهة ، اذ أن الزكاة هناك والألقاب ، من نصيب الابن الأكبر وحده ، لتبقى الثروات على ضخامتها وليبقى للأسر الاتوقراطية دعامتها المادية التى تعتز بها وتشمخ .

لكن أغنياء المسلمين ، مع الأسف ، كثــيرا ما يحتالون على أحكام دينهم باجراءات مصطنعة للفرار من تطبيقها ، فتارة يحرمون البنات ، وتارة يفضلون وارثا على وارث ، وما أكثر عقود البيع الصورى التى تنجو بها الملكيات الكبرى من التفتت والتوزيع العــادل ، رغم أنه أثر عن الرسول العربى العظيم انه قال : « الأضرار فى الوصية من الكبائر » ثم تلا قــوله تعالى : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورســوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها » وما الحدود التى أشار اليها الله العلى الأعلى فى الآية الكريمة الا أنصبة المواريث ، كما وزعها على المستحقين

فى الآية الـكريمة : « يوصـيكم الله فى أولادكم للذكـر مثـل حظ الأنثيين . الخ » .

قد يقال ان الاشتراكية تنكر مبدأ التوريث ولا تكاد تقره الا فى توافه المتاع وحجتها فى ذلك أن الميراث ينـافى العدالة ، ومبدأ تكافؤ الفرص ، وينقل الثروة لمن لا يستحقها .. لأنه لم يجنها بنفسه ، ولم يكسبها بعمله .

ولكننا نرد الى ذلك أن نظام التوريث فى الاسلام له ضوابطه أيضا التى تجنب المجتمع مثل تلك المحاذير التى يلمح اليها المعترضون . فالاسلام حين حدد لكل وارث حظه من التركة ، وضع من القوانين ما يحول دون سوء استعمال هذا النصيب الموروث ، فسد باب الحرام فى المجتمع كيلا يمكن انفاق المال فى الحرام ، وحد من نزوات الفرد ، فاذا جنح وتجاوز الحدود الى التبذير والاتلاف ، أمكن الحجر عليه أن يعودعن ضلاله .

الاسلام والربا :

قال تعالى : « أحل الله البيع وحرم الربا » وهذا يعنى الا جزاء فى نظر الاسلام الا على الجهد ، وبما ان رأس المال فى ذاته ليس جهدا فهو لا يربح بذاته ، انما طريقة الربح الوحيدة هى العمل ، فلا يجوز اذن أن يكون وجود المال عند صاحبه وسيلة لزيادة المال ، باضافة فائدة اليه عند اقتراضه .

ان هذا المبدأ الأساسى فى الاسلام يحول دون تضاعف المال بذاته كما يقع فى النظام الرأسمالى ، ويحول دون تضـخم الثروات على حساب حاجة الأفراد ، واضطرارهم للاستدانة بالربا ، كما يمنع سببا رئيسيا من أسباب الاستعمار والحروب الدولية ، ويعطى العمل قيمة فى مجال الانتاج . ويحقق العدالة بين الجهد الحقيقى والجزاء على الجهد . ويمنع أن ينال القاعدون الكسالى جزاء ما يستحقونه ، وهم ينالونه فى النـظام الرأسمالى بمجرد توظيف أموالهم فى المصارف وغيرها ، فيضمنون الربح الحرام وهم قابعون ، وتتضاعف ثرواتهم وتتضخم ، وتخل التوازن الاقتصادى والاجتماعى .

الاسلام والاحتكار :

ان المحتكرين فى العالم يتلقفون ــ كما قال أحد الكتاب ــ السحب الهامية فيبعونها للناس قطرة قطرة بالسعر الذى يشاؤون ، ويستولون على خيرات الأرض ثم يوزعونها على الناس ذرة ذرة كما يشتهون .

فالاحتكار يخلق قوة طاغية فى يد المحتكر لا يستمدها من الجودة والاتقان وحسن الخدمة وكفايتها ، وانما يستمدها من وجود الامتياز فى يده أو من احتكاره للسلعة فى السوق ، وهذه القوة الطاغية تستخدم دائما ضد مصلحة المستهلكين ــ أى ضد مصلحة الجماعة ــ فالمحتكر ابدا مناع للخير ، معتد أثيم ، مضيق لفضل الله على الناس يقول له الله يوم القيامة « اليوم امنعك فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » .

لذلك حرم الاسلام الاحتكار ، وندد رسوله الكريم بالمحتكر فقال عليه السلام « لا يحتكر الا خاطىء » « من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه » .

لقد حمل الاسلام على المطففين فى الكيل فقال تعالى « ويل للمطففين » فماذا يكون موقفه من المحتكرين الذين يريدون أن يسلبوا الشعوب كل شىء .. دون أن يعطوها شيئا ؟؟

واذا كان الاسلام قد غضب لحبة يسترقها الطمع وشره الانسان من كفة ميزان ، أو جوف مكيال ، فكم يكون غضبه مستطيرا ، وعقابه شديدا لأولئك الذين يحتكرون خيرات الأرض ، ويأكلون حقوق الشعوب .

الاسلام ومبدأ المصالح المرسلة ــ أى المصالح العامة :

لقد خول الاسلام للدولة ، ان تأخذ من أموال الأغنياء ما تقتضيه حاجة الخزانة العامة للأنفاق على مصالح المسلمين العامة ، وما تتطلبه وقاية المجتمع والوطن من نفقات قد تعجز عن سدها الموارد العادية للدولة ،

وما تأخذه الدولة فى هذه الحالة ليس من الربح كما قد يتبادر الى الذهن ، ولا هو ضريبة ، أو حق كالزكاة .

وفى هذا المبدأ كما يبدو تقييد لحق الملكية الفردية ، وتحديد يجعله دائما خاضعا لحاجات الدولة العامة ، أى لحاجات الجماعة ، وخاضعا لسلطة الدولة بلا قيد الا قيد الحاجة الاجتماعية ، وفى ظله تملك الدولة تحقيق التوازن الاقتصادى ، لا عن طريق الضريبة فحسب بل بانتزاع أنصبة من الملكية الفردية دون تعويض أو رد ، لتنفق فى المصالح العامة للجماعة .

الاسلام ومبدأ شيوع الموارد العامة :

وهو ما يسمى بلغة العصر تأميم المرافق العامة . قياسا على شيوع الماء والكلأ والنور التى نص عليها الحديث الشريف بوصفها موارد عامة لا يجوز تحديدها بملكية خاصة ، وبوصفها ضرورات حياتية يجب أن تظل مشاعة بين الناس . وقد رتب المذهب المالكى على هذا شيوع الركاز فلا يؤول الى ملكية خاصة .. « فليست فى نظر المالكية المعادن والسوائل فى محالها — أى مناجمها — من الأموال المباحة حتى يتملكها من وجدها واستولى عليها . وانما هى ملك للمسلمين استولوا عليها باستيلائهم على أرضها لأنها منها وثمرة من ثمراتها ، ولكنها مع ذلك لا تعد تابعة لها فلا تملك بامتلاكها » .

ولا ريب أن رد الملكية العامة فى هذه المرافق للجماعة فيه قضاء على سبب هام من أسباب فقدان التوازن الاقتصادى فى المجتمع ، لأن هذه الموارد تمثل القسم الأكبر من الثروة العامة تملكه فى النظام الرأسمالى شركات أو أفراد ، وتنشأ من هذه الملكية آثار سيئة فى المجتمع ، كما تصبح سببا من أسباب المنازعات الدولية ومبررات الطغيان والعدوان ، وأساليب الاستعمار .

الاسلام ومبدأ تحريم الترف والاسراف :

ليس الاسلام دين تقشف وشظف وحرمان ، ولكنه دين يبيح لمعتنقيه

ان ينعموا بالحياة ويستمتعوا بطيباتها « كلوا من طيبات مارزقناكم » « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » .

غير ان ما ينكره الاسـلام على معتنقيه ، تعديهم حـدود الاعتدال ، وانغماسهم فى الترف ، لما يورثه الترف من فساد . وتعفن فى كيـان الفرد وكيان المجتمع ، فلقد حدثنا القرآن الكريم ان المترفين كانوا عبر التاريخ ، علة انهيار المجتمعات ، وتقهقر الشعوب وانحلالها :

« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليهـا القول ، فدمرناها تدميرا » .

ان الترف الذى تفرق فيه طبقة ، يقابله بالضرورة حرمان ، تعانى شظفة طبقة أخرى ، لأن المترفين يمتصون دماء الجماهير ، ويستغلون جهودها ، ويتصرفون بخيراتها ، ليرضوا شهواتهم ويحققوا رغباتهم ، ولا شك ان مثل هذا السلوك الاجتماعى ، يفقد الجماعة روح السلام والآخاء لأنه يثير أحقاد النفوس ، ويوقظ حزازات الطبقية ، فضلا عما يخلفه هذا الوضع من آثام اجتماعية ، هى ابنة الشهوات القذرة التى يتفانى فى سبيلها المترفون .

من هنا كانت حكمة الاسـلام فى تحريم التبـذير والاسراف والترف « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » وذلك حفظا للمجتمع من التفسخ ، والترهل الروحى والميوعة الخلقية .

الاسلام ومبدأ الكنز :

« والذين يكنـزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سـبيل الله ، فبشرهم بعـذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتـكوى بهـا جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتـم تكنزون » .

ذلك أن حبس المال عن التداول ، وكنـزه فى الصناديق والخزائن ، يؤدى الى اختلال التوازن المالى والتجارى والاقتصـادى ، وبالتالى الى اختلال التوازن الاجتماعى .

وهذا يعنى أن الكنز ليس سلوكا شخصيا مؤاخذا عليه فحسب . بل جريمة اجتماعية ، يجب على الدولة أن تستأصلها بما تضع من تشاريع واقية ، فحبس المال ان كان سببه البخل والتقتير فقد ندد الله سبحانه بالبخلاء والمقترين « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » وان كان سببه التهرب من الانفاق فى سبيل الله .. أى فى سبيل حماية المجتمع ومصالحه ، فأحر به أن يحارب ويعاقب .

قد يقول قائل .. ان ما تؤدى زكاته من مال ليس بكنز لأن تحريم الكنز فى مثل هذه الحال ، افتئات على الحرية الشخصية ، وغريزة الادخار .

وجوابنا على ذلك حديث للرسول الأعظم حازم جازم . يقول عليه الصلاة والسلام فيه :

« من جمع دينارا أو درهما أو تبرا أو فضة ، ولا يعده لغريم ، ولا ينفقه فى سبيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامة » .

هذه صورة موجزة عن نظام الاسلام الاقتصادى ، تظهر فيها الخطوط الاشتراكية التى أراد الاسلام لها أن تتوضح ، وأن تستقر . ولننتقل الآن الى الناحية الاجتماعية ؛ التى أراد الاسلام بها أن يهدم حواجز الطبقات ، وأن يقيم أركان المجتمع الفاضل .

يتغنى عصرنا الحاضر ، وتتغنى معه النظم الاجتماعية ، والاشتراكية منها بوجه خاص ، بما حققته للمواطن من ضمانات ، وللعامل من حماية .

فالى أى حد قدم الاسلام هذه الضمانات ، والى أى حد مجد الطبقة الكادحة ؟ !

ان الأحاديث الشريفة التى رويت عن الرسول الأعظم تشير الى أن أحب الطبقات عند الله ، الطبقة الكادحة : فلقد قال عليه السلام : « ما كسب رجل كسبا أطيب من عمل يده » .

وروى انه ذكر للرسول رجل كثير العبادة لا يعمل . فقال : « من يقوم به . قالوا أخوه : قال أخوه أعبد منه . وقال ان الله يحب العبد المحترف » .

وعن أنس قال : كنا مع النبى فى سفر ، فمنا الصائم ومنا المفطر ، قال : فنزلنا منزلا فى يوم حار اكثرنا ظلا صاحب الكساء . فمنا من يتقى الشمس بيده . قال فسقط الصوام اعياءا ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية ، وسقوا الركاب ، فقال رسول الله : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله » .

ومر النبى صلى الله عليه وسلم على رجل فرأى أصحابه من جلد أحدهم ونشاطه فى الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه : قالوا : يارسول الله لو كان هذا فى سبيل الله ؟ فقال الرسول : ان كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله . وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه فيعفها فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان .

كما ورد عنه قوله : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » .

فأى تمجيد للعمل يفوق هذا التمجيد ؟ الا يوازى هذا على الأقل ، التكريم الذى تريده الاشتراكية للعمل والعمال ؟

أما العامل فقد حماه الاسلام وأوصى بالمحافظة على حقه ، وحذر من انتقاصه والافتئات عليه .

فأنت فى نظر الاسلام ، حين تحفظ للعامل حقه ، تؤدى لله عبادة .. عبادة ليس السجود والركوع قوامها ، ولا الذكر والاوراد شكلها ، وانما قوامها صيانة الحقوق والعمل بروح الدين ، وأوامر الله .

وبعد .. ما هو موقف الاسلام من مبدأ الضمان الاجتماعى الذى يشكل ركيزة من ركائز الاشتراكية الحديثة ؟ ؟

واليكم قرائى الأعزاء بعض الأمثلة التى تدل بوضوح على تعلق الاسلام بمبدأ الضمان الجماعى والعمل على تحقيقه .

* سيق الى عمر بن الخطاب فى عام الرمادة — وهو عام مجاعة — أعرابى اتهم بالسرقة ، ولما سئل الاعرابى عن التهمة اعترف بان الدافع الذى دفعه اليها قاهر غلاب ، فهو فقير يعيش من عرق جبينه وجنى يديه ، وعبثا حاول ايجاد عمل لنفسه يقيه وأطفاله شر الجوع .

فمال ابن الخطاب على الصحابة يسألهم رأيهم : فأجمعوا على تطبيق الحد .

ولكن عمرا ، وهو عبقرية تشريعية خالدة ، ادرك بثاقب بصره الصلة الوثيقة بين الحاجة الملحة والجريمة ، وانتبه الى وظيفة الدولة الأساسية ، ووجوب تأمينها العمل للجميع ، واعتبر اغفالها لمثل هذا الاعرابى الفقير ، تقصيرا فى القيام بواجباتها والتزاماتها نحو كل مواطن ، فالتفت الى الاعرابى ، وفى عينيه دمعة أكبر من السماح وأنبل ، وقال له :

اذهب يا أخا العرب . ولا تعد لمثلها .

ثم التفت الى أصحابه قائلا ما معناه :

« اجروا عليه من بيت المال الى أن يجد عملا » .

أما قصة هذا الخليفة العظيم مع الأرملة العجوز ، فلا أحد يجهلها أو يجهل دلالتها الاجتماعية ، وكذلك قصته مع ذلك الشيخ الذمى الذى رآه يتسول عند باب المسجد فتقدم اليه معتذرا : « يا شيخ .. استخدمناك شابا وضيعناك شيخا » ثم أمر أن يرتب له من بيت المال ما يكفيه فى شيخوخته ، ويجنبه ذل السؤال .

ومن هذه الأمثلة يتضح ان الاسلام عرف أنواع الضمان : التى شاعت فى النظم الاشتراكية الحديثة ، كضمان المرض والعجز وضمان البطالة .

أما الاسلام السياسى فقد أعطى العالم كله آماثيل رائعة فى النبل والتسامى ، والأخوة ، والمساواة والدفاع عن الحريات ، وحب السلام والديمقراطية .

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » .

« انما المؤمنون أخوة » .

« وكونوا عباد الله اخوانا » .

« لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » .

« الانسان أخو الانسان احب أم كره » .

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

بمثل هذه الضمانات كفل الاسلام للفرد طمأنينته وحريته وحرماته ، فان اعتدى عليها معتد فالقصاص نصيبه ، أيا كان المعتدى ، لأن الاسلام لم يميز فى قانونه ، ولا فى واقعه التاريخى بين خليفة أو أمير ، وبين فرد من عامة الناس . فمحمد بن عبد الله كان يقيد من نفسه ، وعمر بن الخطاب يسلط ذلك المصرى المظلوم ، وهو ابن الشعب ، فيضرب حاكم مصر وابن الأكرمين . وعلى بن أبى طالب يخاصم نصرانيا سرق درعه الى قاضيه شريح ، فيحكم القاضى ضد الخليفة لأن الخليفة لا يملك بينة على السارق .

فيبتسم الخليفة ويطيع .

بين الاشتراكية والقومية

* ان الهدف الأساسي لجميع المذاهب الاشتراكية هو القضاء تدريجيا ، أو بطريق العنف ، على نظام الملكية الخاصة ، وتنظيمها ، ثم انماء الانتاج واختيار موارده وطرق توزيعه .

* أما القومية فهى مجموعة مندمجة من الأشخاص ، يتفاعلون بنفسية واحدة ، ويندمجون فى صفات وخصائص واحدة ، ويخضعون لعواطف وتيارات واحدة ، ويعملون من أجل هدف واحد .

* لا تناقض — الآن — بين القومية العربية والاشتراكية وليست الثانية هدفا للأولى ، لأن القومية العربية متحركة وليست جامدة متطورة وليست متأخرة ، وهى بالتالى واقعية فى نهجها السياسى ، ومنطقية فى كفاحها الاجتماعى « وطبيعة الأحداث اليوم ، والظروف الدولية ، تحتم عليها أن تتوسل بالاشتراكية من أجل العرب

موضوع الاشتراكية والقومية موضوع شائك لكثرة ما خاض به الباحثون وتعددت فيه آراؤهم ، ولكننا سنحاول قدر المستطاع توضيح نقطة هامة جدا تتمثل بهذا السؤال : هل هناك تناقض بين الاشتراكية أو القومية؟

.. أو بكلمة أخرى هل يمكن فصل الاشتراكية عن القومية أو القومية عن الاشتراكية ؟

تعريف الاشتراكية :

يمكننا ان نفسر الاشتراكية بوجه عام على أنها نظريات أو حركات اجتماعية وبالتالى سياسية واقتصادية ، تهدف الى تنظيم مجتمع يقوم على صالح الغالبية من الشعب ، وذلك عن طريق الملكية الجماعية والرقابة الجماعية لعناصر الانتاج والتوزيع . فهدف الاشتراكية اذا هو تحويل الملكية الخاصة لعناصر الانتاج « كالمصانع والمنشآت الكبيرة والأراضى الزراعية والمناجم ونحوها) الى ملكية جماعية ، وتنظيم الانتاج القومى وفقا لخطة مركزية مرسومة تحقق الصالح العام لا صالح طبقات معينة ، وهى تهدف الى ازالة جميع المساوىء الاجتماعية والسياسية التى تمخض عنها النظام الرأسمالى الحر ، وترى أن هدفها الأول هو ازالة هذا النظام والقضاء على ما يترتب عليه ، من تمسك الأفراد بقيم مادية ضارة بالمجتمع وبالصالح العام .

أنظمة اشتراكية أخرى :

هذه هى الاشتراكية العلمية غير ان هناك أنظمة أخرى اتخذت من الاشتراكية شكلا لها ، على حين أنها ليست فى الواقع ، الا اتجاها اصلاحيا تقدميا يمثل خطوة الى الامام نحو الهدف الأسمى .

على أن الكثيرين من الكتاب المتأثرين بالفلسفة الماركسية يرون أن سبل الاصلاح الاجتماعى هذه لا تخرج عن كونها مخدرات وقتية تؤخر الوصول الى الهدف وخصوصا اذا كانت الطبقة الرأسمالية الحاكمة هى التى تحتضن هذه الاصلاحات وتقوم بها . وقد أثار هذا الاختلاف فى وجهات النظر جدلا حادا على مر السنين بين مدارس الاشتراكية المختلفة . ففريق يؤيد الاصلاح التدريجى وآخر يؤيد اتباع وسيلة فعالة تقلب النظام

الرأسمالى وتمحو معـالم الطبقة الحـاكمة وطائفة الملاك على اختـلاف أنواعهم .

أهداف الاشتراكية :

أما وقد عرفنا ان للاشتراكية تفسـيرات متعددة وطرقا مختلفة فى تحقيق أهدافها فانه ليمكننا أن نجعل تلك الأهداف فى قائمة ترشدنا الى الأسس العامة التى تقوم عليها المذاهب الاشتراكية ، والاهداف التى تتضمنها القائمة المذكورة لا تعبر عن برنامج حزب اشتراكى معين ، كما انها لا تشمل النواحى التفصيلية للمذاهب المتبعة . وانما هى قائمة عامة تتضمن رمزا أو شعارا عاما لمفهوم المجتمع الاشتراكى وتتلخص هذه القائمة بما يلى :

أولا ــ ازالة طبقة الرأسماليين ونفوذهم ٢) شخصية الجمـاعة فوق شخصية الأفراد ــ ٣) تغيير نظام الملكية الخاصة بنظام ملكية جماعية ــ ٤) رفع مستوى المعيشة لعامة الشعب من جميع الوجوه ــ ٥) ازالة نظـام الملكية الزراعية والقضاء على الاقطاع ــ ٦) كفالة الفرص المتكافئة للجميع دون تمييز طبقى ــ ٧) هيمنة النظام المركزى على الانتاج وادارته طبقا لخطة مرسومة تحقق الرفاهية للجميع على السواء .

ويتضـح من هذه القائمة ان الهدف الأسـاسى العام لجميع المذاهب الاشتراكية هو القضاء اما تدريجيا واما بطريق العنف على نظام الملكية الخاصة ثم تنظيم الانتاج طبقا لخطة مركزية مرسومة ، باعتبار ان الدولة تكون هى المهيمنة على عناصر الانتاج وعلى توزيع الناتج القومى على أفراد الشعب .

الاشتراكية والمذاهب العنصرية :

وقبل أن ننتقل الى تعريف القـومية ، يجب أن نشير الى أن بعض الباحثين يقعون فى خطأ جسيم عندما يتوهمون النازية أو الفاشية مذهبا من المذاهب الاشتراكية ، بمجرد ان النظم الفاشية والنازية قد غطيت بتسمية هى الاشتراكية القومية . فكلمة نازية ليست الا اختصارا لعبارة « ناسيونال

سوزيالسمس » الألمانية أى الاشـــتراكية القومية . ان الفرق شاسع بين الاشتراكية والفاشية أو النازية ، وهو فرق فى العقيدة والأسلوب والفلسفة ونظام الدولة ، بل يمكن القول ان العداء مستحكم أصلا بين النظامين منذ نقطة البدء ، فالفاشية تمثل دولة تعبئية تســخر فيها كل الجهود والعوامل والامكانيات لصالح الدولة . وتختصرها كلمة موسولينى : (كل شىء هو الدولة ولا شىء خارج الدولة ولا شىء ضد الدولة) وهى تعتمد على منطق واحد هو القوة الشخصية التى هى مصدر كل قوة أخرى ، أى انها تعتمد على مبدأ الزعيم الديكتاتورى وتأليهه ، فليس الزعيم هو الذى يظهر فى الملمات فينقذ البلاد من خطر داهم ، ولكن الذى يفرض ارادته وسلطته على الأمة بصورة أسوأ من تلك التى عرفتها الأمم أيام الأباطرة والقياصرة المستبدين.
أما النازية فترتكز على أســطورة الجنس الآرى المتميز والمؤهل لاستعباد الشعوب الأخرى ، لذلك يهمنا أن نشير الى ان تسمية النازية مثلا بالاشتراكية القومية ، ليست الا من قبيل الدجل السياسى والعقائدى وتضليل الناس .

تعريف القومية :

ان أكثر الصيغ الموضوعة لتعريف القومية تثبت أن التفكير النظرى عاجز عن التفرد بمعالجة مركبها ، وهكذا رأينا المفكر الاسبانى (بيمارجال) يجهد منذ ١٨٧٦ لالحاق مبدأ القوميات بالمبدأ الاتحادى ، وجعله رديفا له .
وذلك بتحديد القومية بواسطة خصائص ثابتة فهو يقول : اذا كان يمكن لشعب أن يرضى بما يأباه بالغريزة فيدين عنوة لشعب آخر ، ويصبح تابعــا له ، واذا كان يكفيه ليرضى بهذا المصير أن يحترم نوع حياته ويعطى مساواة فى الفرص والحقوق مع المحتلين الغالبين . وكذلك اذا استطاع أن يعيش أسوة باميركا الشمالية فى سلام وانسجام مع الغاصبين ، وذلك دون أى اندماج طبقى بالمحتل الذى تفصــله عنه عوامل الجنس ، واللغة ، والدين ، والشرائع ، فمن البدهى عندئذ أن تكون قاعدة القوميات ومقياسها غيــر منحصرين لا فى وحدة القوانين ، ولا فى وحدة الدين ، ولا فى وحدة اللغة

ولا فى وحدة الجنس . أما (أورياخ) فيستنع عن تعريف القومية الا بصفتها حدثا نفسيا اجتماعيا . فى حين يرى (كيلتيى) أنها ليست الا شعورا يضاهى الشعور الدينى ويمكن أن يمارسها الانسان طائعا أو مختارا .

وقد عرفت دائرة المعارف البريطانية القومية فقالت : (القومية مفهوم يعتــوره بعض الغموض ، ولكنه يســتعمل فى معنــاه الدقيق فى الحقوق الأممية ، للدلالة على صفة حالة ثابتة ، تعين التبعية فى داخل الأمة أو الدولة بمعنى أكثر شمولا ، يستعمل فى المناقشات السياسية والأبحاث للدلالة على مجموعة مندمجة موحدة من الأشخاص الذين يحيون فيما بينهم من وحدة الجنس والأرض واللغة وسواها) .

أما (رمزى موير) فلا يفرق بين الوطن والأمة ، ولا يرى فى القومية الا دلالة اجمالية على صفات الوطن وخصائصه ، ويعتبر القومية مجموعة من الناس الذين يشعرون بروابط طبيعية تجمعهم ، وبميول طبيعية تبلغ من القوة ومن الحقيقة انها تتيح لهم الحياة المشــتركة وتجعلها ممكنة بل مستحبة ، وتجعلهم لا يرضون أن تفرض عليهم العبودية للشعوب الأخرى .

وأما (شارل ديمورغان) فيرى ان لفظة القومية تظل غامضة المدلول ، فلا تدل الا على مناهج غير دقيقة ، والقواعد التى تقوم عليها مزعزعة غير ثابتة ، وذلك ناتج عن كثرة العوامل التى تحاول أن تثبت عيلها مرتكزاتها .

وهناك من يصنف القومية فى قوميتين : قوميــة انسانية وقومية لا انسانية والمثل على القومية اللاانسانية هو الاستعمار . فالاستعمار شعور قومى « لا انسانى » وسببلجميع الثورات القائمة بين الأمم .

وخلاصة القول ان اجماع العلماء فى الفقه قائم على أن عناصر القومية هى : الجنس والأرض واللغة والــدين .. ولكننا لا نريد أن نسترسل فى النظريات التى ساقها علماء الغرب حول هذا الموضوع بل نود أن ننتقل الى قول كلمة فى القومية العربية .

القومية العربية :

من الصعب جدا تحديد أركان القومية ، فاللغة وحدها لا تصلح أن تكون ركنا من أركانها ، وكذلك الدين لا يصلح وحده أن يكون ركنا من أركانها ، والوحدة الجغرافية والتاريخية والمصالح المشتركة لا تصلح كل منها منفردة فى أن تكون ركنا من أركان القومية . فمم تتكون القومية اذا ؟

الحقيقة هى أن القومية لا تحدد بأى عامل من هذه العوامل ، وانما تحدد أولا وآخرا بشعور مجموعة من الناس أنهم أبناء قومية واحدة .
والدكتور الرزاز يرى انه لم يجتمع لامة من أسس القومية مثل ما اجتمع للأمة العربية ، وأول هذه الأسس وحدة الأرض .. هذه الأرض التى تمتد من آقصى الشرق الى أقصى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب قطعة واحدة لها جغرافية واحدة ، تتمثل فى كل قطر من أقطارها المجزأة ، وتتلخص فى احتوائها جميعا على صحراء وجبل وسهل .

أما اللغة فواحدة منذ أربعة عشر قرنا وهى ليست ركنا بسيطا من أركان القومية العربية لأنها أشركت العرب جميعا فى حضارة واحدة ، ونتاج عقلى واحد منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

أما الركن الثالث الذى تقوم عليه القومية العربية فهو التاريخ الواحد .. هذا التاريخ الذى حمل صورة واحدة ومر على أدوار واحدة وصبغ هذا الوطن بصبغة واحدة .

واما الركن الرابع فهو وحده المصالح والمشاكل ، غير أن هذا كله فى رأى الدكتور الرزاز لا يكفى وحده لأجل خلق قومية واحدة ، وانما الذى يكفى حقا هو أن كله قد أنتج شعورا عاما لدى سكان الوطن العربى كله بأنهم ينتمون الى قومية واحدة . وهذا الشعور لا يرجع فى الأصل الى ركن واحد من هذه الأركان التى ذكرناها ، وانما يرجع اليها جميعا

ويعلو عليها جميعا .. يعلو عليها لأنه هو الأصل أما هى فاسباب وعوامل ، ولو اجتمعت كل هذه العوامل معا ولو تنتج هذا الشعور بالقومية الواحدة ، لما تنتجت قومية عربية واحدة . وهذا الشعور ينتج باللاوعى اكثر من الوعى، لأن عوامل واحدة هى التى سيطرت على ماضينا وعلى حضارتنا وعلى تراثنا، وهى التى تشكل حاضرنا ، ولأننا نجابه نفس المشاكل بنفس العقلية ونصادف نفس الأمراض ، وتسيرنا نفس التيارات .

ولا شك أن هذه القرون الطويلة التى عاشها الوطن العربى ــ كمجموعة ــ تسيطر عليه نفس الحضارة ونفس العقليــة ، ونفس المعتقــدات ونفس الخرافات ، ونفس العادات ونفس الآلام ونفس الآمال ، لم تمض دون أن تترك آثارها الواحدة كذلك ، فى نفس الجيل القائم اليوم فى البلاد العربية .

وأما الركن الخامس فهو الدين ، ولا نريد أن نقلل من أهمية هذا الركن ، فعلى الرغم من أن الدين لا يمكن أن يحدد القوميات ، خصــوصا ونحن نعلم أن الدول التى تدين بالمذهب البروتستانتى كثيرة ، وتمثل قوميات مختلفة اشد الاختلاف ، ونعلم ان الدول التى تدين بالمذهب الكاثوليكى كثيرة كذلك وتمثل قوميات مختلفة ، وان الاســلام أيضا يضـم قوميات مختلفة أشد الاختلاف ، بينها : الهندى والباكستانى والتــركى والايرانى والعربى والأندونيسى ، الا أن الذى لا شك فيه ، هو أن الاسلام قد صبغ حياتنا العقلية طوال ثلاثة عشر قرنا ، كما صبغ تقاليدنا وعاداتنا ، واساطيرنا ومعتقداتنا ، وحياتنا اليومية المعيشية .

فالاسلام فى البلاد العربية لم يكن مجرد دين فحسب ، بل كان تاريخا وحضارة وحياة عقلية ، اثرت فى حيــاة سكان هذا الــوطن على اختــلاف اديانهم ، ووحدتهم مسلمين ومسيحيين فى اطار فكرى ومعيشى واحد .

هل تناقض القومية الاشتراكية :

نستطيع دون تردد ، ان نجيب على هذا السؤال بكلمة لا ، فالقومية

تحقيق لميل طبيعى فى البشر يدفعهم للتعاون ، والاشتراكية ميل من البشر لرفع مستواهم وتحسين ظروفهم الحياتية والمساواة فيما بينهم فى الفرص .

ولا يطعن فى القومية أنها رافقت النظام الرأسمالى ، فأدت الى قيام الحروب لأن هذه القومية قادرة على أن تعايش النظام الاشتراكى ، وتسير فى ركابه . فتمنع الحروب وتنمى روح التعاون .

وأعظم ما يمكن أن يستشهد به من الواقع . مثل الاتحاد السوفياتى نفسه ، الذى هو أقوى مظهر حتى اليوم لتعاليم كارل ماركس ، فهذا الاتحاد لم يقض على القوميات التى انضمت اليه ، ولم يلغ الحدود التى كانت تحدد بلاد التركستان أو الأرمن ، بل اعترف بها وقواها وانشأ فى كل منها دويلة قائمة بذاتها ، ولكنه الغى طغيان القومية الروسية عليها ، القومية التى كانت سائدة فى العصر القيصرى ، أى انه أراد تحرير القوميات من الأستعباد ، ولكنه لم يرم الى الغاء القوميات نفسها ، بل عمل على تنشيطها ، واحياء تراثها ورعاية فتوتها القومية . ولقد حدثنا صديق زار الاتحاد السوفياتى ، وتجول فى جمهورياته المختلفة فأكد لنا انه لمس لمس اليد الطابع الخاص المميز لكل قومية فى نطاق الاتحاد الواسع .

فاذربيجان مثلا أو تركستان أو اوزبكستان أو ارمنيا ، تتمتع كل منها باستقلالها الخاص ، ولها عاداتها وتقاليدها ولغتها القومية الخاصة بها ، ولا هم للدولة الا تطوير هذه العادات وتلك التقاليد .

الاشتراكية العربية :

اما فى البلاد العربية ، فقد دار جدل كبير وحمى الصراع كثيرا حول ما اذا كانت الاشتراكية يجب أن تواكب المدالقومى وتندمج فيه،أو أن تنفصل عنه كمرحلة لاحقة نرقى اليها بعد أن نحقق وحدتنا ونتحرر .فهناك فئة تقول بان الاشتراكية يجب الا تكون فى هذه المرحلة التاريخية التى نجتازها هما من هموم نضالنا ، لان هذا النضال يجب ان يتركز بادىء ذى بدء فى تحقيق

الوحدة القومية ، حتى اذا ما تحققت هذه الوحدة تسنى لنا طـرد الاستعمار واستئصال نفوذه وتصفية قواعده . ومن ثم . نتفـرغ لمعـالجة امراضـنا الاجتماعية وتنظيم حياتنا الاقتصادية تنظيما تفرضه علينـا ضرورات حياتنا الجديدة ومتطلبات اوضاعنا .

الا ان هذه الفئة حين تقول هذا القول تنسى كثيرا من الحقائق ، فهى تنسى أولا أن الوحدة لا يمكن أن تتحقق الا اذا طردنا الاستعمار ، فما دامت للاستعمار جذور فى ارضنا ، وما دام للاستعمار سـلطان على بلادنا ، فانه لا يمكن الا أن يكون عـدو وحدتنـا ، وقـد تجـلت هـذه الحقيقة فى السنوات الأخيرة ، وخصوصا عندما توحدت مصر وسوريا فى جمهـورية واحدة ، فلقد جن جنون الاستعمار ، ونشط عملاؤه نشاطا عجيبا غير عادى وأخذت دوائره تعمـل ما وسـعتها الحيلة للحيلولة دون خطوات توحيدية اخرى ، كما تعمل ما وسعها العمل لمحاربة الجمهورية الفتية الناشئة ، ومحاربة افشائها كمثل مشجع ، وقدوة يجب أن تشخص اليها أبصار الاحرار فى دنيا العرب ..

كما تنسى هذه الفئة ثانيا أن التحرر هو طريق الوحدة ، وأن القومية العربية ليست درجة فى سلم الارتقاء والتطور ، وانه ليس بينها وبين الانسانية فاصل اساسى وتفـاوت فى الدرجة والقيمة ، بل انهـا هى تربة الانسانية ، والمجال الحى لاخصابها ، وأن الانسانية ليست وضعا اجتماعيا أو سياسيا ، بل روح واتجاه ومثل تنبث فى تكوين الشعوب والامم ، وتلون حضـارتها وتوجه سلوكها واخلاقها ، وهى مرافقة للقومية وليست لاحقة لها .

وهناك تيـار قومى آخـر هو الأقوى والأسلم ، يؤمن أن القضـايا الاقتصادية والاجتماعية لا يمكن أن تفرغ من مضمون القومية .

فالقومية العـربية بمضمونها الحـديث هى مزيج متفاعل من هموم الانسان العربى كلها ، فالعربى بحاجة الى الحـرية ، بحاجة الى الوحـدة ،

بحاجة الى العدالة الاجتماعية ، بحاجة الى تحرير اقتصاده من نفوذ الدخيل وسيطرة الغريب ، بحاجة الى تنمية موارده ، واستخلاص خيراته وكنوزه من أيدى غاصبيها وسالبيها ، رهو لا يستطيع أن يفاضل بين هذه الحاجات كلها ، فهى مترابطة متفاعلة ، ولا يستطيع أن يعتبرها مراحل يجب أن يجتازها متداخلة متشابكة ، ولا يستطيع أن يعتبرها مراحل يجب أن يجتازها مرحلة بعد مرحلة ، لانها فى الواقع ليست الا ملامح متعددة لوجه واحد .

النضال القومى العربى والاشتراكية :

ان النضال فى سبيل القومية العربية يعنى فى الوقت نفسه : نضالا فى سبيل التحرر ، ونضالا فى سبيل الوحدة ، ونضالا فى سبيل الاشتراكية .

ان من يدعو الى القومية ويبشر بها ، ويدعو الى محاربة العبودية والاستعمار والتجزئة والظلم الاجتماعى ، يبشر فى الوقت نفسه ويدعو الى مقارعة الفقر والجهل والمرض ، والتفكك والانحراف والرجعية .

يبشر ويدعو الى الانسانية .. لأن قوميتنا ومبررات وجودها تجعلنا لا نستطيع أن نتصور أنها انما وجدت لتخاصم غيرها ، أو لكى تثبت وجودها ازاء قوميات اخرى . أو لكى تدعو التفوق أو حق السيطرة على غيرها أو لتدفع التهمة عن نفسها .

ان القومية العربية تلتقى مع النزعات الانسانية فى انبل امانيها .. وان ما يتوهمه البعض نزعة غير انسانية تتمثل فى كره العرب للاجنبى ، ليست الا نتيجة حتمية للعهود السوداء الطويلة التى عاشوها فى ظل الاستعمار والكبت والعبودية .

لقد طغى الغرب وفرض على البلاد العربية التجزئة ، وحارب امانيها القومية محاربة لا هوادة فيها ولا رفق ، ولم يكتف بذلك بل اقام فى قلب

الارض العربية دويلة مصطنعة زائفة ، وراح يغذيها ويمدها بالايدى والمال والسلاح ، ويدعمها سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، ويحرضها عند كل مناسبة ويزين لها العدوان راميا من وراء ذلك الى تمريغ الكرامة العربية ، واذلال الاباء العربى وتمزيق الاخاء العربى والنيل من القومية العربية .

وكان الغرب من قبل ان يقيم اسرائيل قد اذاق العرب الوان العذاب .. فاحتل ارضهم واغتصب خيراتها وتنعم بثرواتها ، وحصر همه التمدينى فى اشاعة الفقر والجهل والخوف .. لذلك كان طبيعيا ان تنشأ عند العربى عقدة يمكن ان تسمى « عقدة الاجنبى » .

وكلما سنحت له الفرصة للشفاء من هذه العقدة ، سارع الغرب الاستعمارى الى ترسيخها وتأكيدها ، فهو لا يفتأ ينبرى للامانى العربية فيحاربها ويضطهدها ، ويعمل ما وسعه العمل لاحباطها وخنقها والحيلولة دون تجسدها وتحققها ، ولكن هذه العقدة ليست شيئا اصيلا فى الفطرة العربية ، بل الشيء الاصيل فى هذه الفطرة هو الحس الانسانى والانفتاح السمح على العالم ، والشعور بان هناك رسالة يجب أن يؤديها العربى لخير الانسان أو يهم بأدائها مع الآخرين .

وكذلك فا نالشيء الاصيل فى هذه الفطرة هو الكره الشديد للذل والاستعباد وعدم الاستكانة للطغيان .

ميلاد القومية العربية :

لا يمكننا كباحثين أن نحدد للقومية العربية ــ كفكرة وشعور وحقيقة ــ يوما ــ نوضح فيه تاريخ تكونها وصيرورتها عاملا م نأهم العوامل الفعالة فى البلاد العربية ، ولكننا نستطيع أن نلاحظ خلال الازمات التى مر بها الشعب العربى عبر تاريخه الطويل ان هذه القومية كانت اثرا من الآثار الخالدة التى واكبت تطور هذا الشعب منذ طفولته الجاهلية حتى شبابه الاسلامى .. الى أن

تعاقبت عليه فيما بعد شتى المحـاولات الرامية التى تفتيته وتضييع معـالمه . والتى قام بها الشعوبيون تارة ، والاعداء الخارجيون تارة اخرى .

ومن منا يمكنه ان ينكر ان هذه القومية بدت أكثر ما تكون وضوحا وجلاء في كافة العصور العربية ، وانهـا كانت فى العصر الجاهلى وفجـر الاسلام . نوعا من الصلات الوجدانية التى تربط بين سكان الجزيرة ، وتشد اطراف اليمن الى اطراف نجد ، وتربط بين الشواطىء التى تطل على المحيط الهندى ، وبين الشواطىء التى تطل على البحر الاحمر .

ومن خلال دراسة بسيطة لعـادات العرب فى هذه الجـزيرة شمالها وجنوبها ، شرقها وغربها نجد ان « العروبة » كانت تسـم الجميع بميسمها الخاص ، فما هو منكر فى الشمال منكر فى الجنـوب ، وما هو متبع فى الشرق متبع فى الغرب ، والتقاليد واحدة ، والعبادات واحدة ، والتكوينات النفسية للشعب واحدة ، والطابع الحياتى واحد ، والمفاهيم الاجتمـاعية واحدة ، ولعله من العجيب ان تكون الحدود بين نجد وتهامة مثلا كافية لأن تفرق بين النطق هنا وهناك ، وان تكون « أل التعريف » مثلا فى احـدى القبائل ، هى «الميم» فى القبائل الأخرى ، من العجيب أن يتم حصول هذا الفرق فى اللغة الواحدة ،وأن يظهر جليا واضحا كلما تباعدت المسـافة بين القبيلة والقبيلة ، فى حين أنه لا يؤثر هذا نفسه على عروبة أى عربى فى أى مكان من الجزيرة العربية .

ولعل متسائلا يتسائل : علام كانت تثار الحروب بين القبيلة والقبيلة ؟ ولأى شىء كانت تهدر الدماء بين قوم وقوم ؟ ونحن قد عرفنا القومية بأنهـا شعور واحد لجماعة واحدة من الناس . فأين هو ذلك الشعور ؟

والجواب على ذلك هو أن الحيـاة العربية فى اطوارها الاولى كانت قبلية بحتة ، ليس فيها أى لون تعاونى غير العنصرية ، وليس فيهـا أى رابط مدنى ما خلا « العائلية » وليس فيها أى شكل حضارى ما عدا « العشائرية »

وهذه الصفات المميزة للحياة العربية ، هى معان بدائية للقومية فى المجتمعات الناشئة ، وهى نفسها الدلائل الناصعة على وجود القومية العربية كرابطة بين العرب لا على انتفائها ، وبالتالى فهى المراحل « الجبرية » الاضطرارية التى تمر بها القوميات فى تكوينها الاول .

لقد اختلف ظهور هذه القومية الى الوجود وطبعته حياة المجتمع العربى بطابع ظاهر ، اختلافا بينا ، وسبب هذا الاختلاف هو ان العرب انطلقوا فى أول عهدهم ينقلون الى الدنيا قوميتهم العربية وعقيدتهم الاسلامية ، وكان الواجب الغالب وهو « الاسلام » أبرز أثرا فى انطلاقهم . بل انه كان هو الدافع الاول لهذا الانطلاق ، لذلك فقد انصبت كافة جهودهم على الدعوة الاسلامية . وبعبارة أوضح ، يمكننا أن تقول ان العقيدة الاسلامية كانت هى الرباط الأوثق . والصلة الاحكم ، والهدف الاسمى ، الذى يشترك العرب فى التفرغ له وخدمته ورفع رايته فى كل مكان ، ويمكننا أن نقول ايضا ان الدعوة الاسلامية استغرقت بل استنفذت الطاقة العربية ، وكان من مفاخر هذه الطاقة ان حملت الاسلام الى جهات الدنيا الاربع .

اما القومية فكانت بجانبه شمعة مضيئة ذهبت بنورها الضئيل ، انوار الشمس الفياضة .

اما فيما بعد ذلك من العهود فقد استقر الاسلام فى القلوب ، واخذ مكانه على الارض ، واخذت جذوره الكبرى تتمدد فى الاعماق ، وتنتشر هنا وهناك ووثق علاقاته مع العقائد الاخرى ، ونظم مشكلاته معها ، واقام الحدود بينه وبين خصومه ، ووضع الأسس لاقامة مجتمع مثالى متعاون بناء .

ولقد اقيم ــ باسم الدين ــ هذا المجتمع فعلا ، وتقننت قوانينه ، وانتظمت شرائعه ، وتحددت حدوده ، وأقيمت أركانه ، وبنيت جدرانه .

واطلت خلال فترة الراحة هذه ، العواطف والمشاعر الاخرى فى صدور الناس : المسلمين ، وبرزت الى الوجـود دعوات دينية واحـزاب سياسية ، كانت فى حقيقتها متنفسا طبيعيا لمطالب الشعب العربى القومية ، وكانت بعض هـذه الاحزاب مغالية فى تطرفها ، وذلك لانهـا برزت تحت مؤثرات بحتة ، كالشعوبية ، والخوارج ، والقرامطة ، والعلوية وغيرها ، وبالرغم من ذلك فقد ظلت العروبة هى خط الدفاع الثانى بعد الاسلام فى هذه الازمات .

مراحل تكوين القومية :

كل قومية من القوميات تتبلور ، وتأخـذ طريقها فى التكوين الفعلى ، وتبرز ملامحها الخاصة بعاملين اساسيين :

١ ـ العامل الايجابى : كتحمل أعباء رسالة ، أو القيام بمهام حضارة ، أو التمرس بعمل كونى ، تكون من آثاره أن تتغير بعض الصفات الاساسية لفريق من الناس ، أو تتغير خلائقهم ، وأن تنمحى طبقات خاصة من البشر وتبرز الى الوجود طبقات اخرى .

و « الاسلام » يمثل هذا العامل فى تكوين القومية العربية .

٢ ـ العامل السلبى ، كانطفاء جذور السلطة ، أو الهزيمة المؤثرة فى واحد من الميادين الهامة فى حيـاة الشعوب ، او انكسار شـوكة الشعب ، وانحداره من مستويات القيادة الى حضيض العبودية ، أو مكوثه تحت ظلال احكام خارجه عن ارادته ، متنافية مع طبـائعه ، مخالفة لقواعده وأسسه . أو خضوعه لعوامل القوة والتحكم والسيطرة لشعب آخر أو قوى أخرى .

وحملات الاستعمار التترية والمغولية ، والحمـلات الصليبية ، وسيطرة الدول الغربية وتحكمها فى البلاد العربية .. كل هذه التفاعلات المتفرقة تمثل العامل السلبى فى تكوين القومية العربية .

ولعله من المفيد أن نلاحظ أن العاملين السلبى والايجابى هما متكاملان أى أن كلا منهما يكمل الآخر فى ابراز معالم القوميات ، واعطائها صـورة

خاصة ، وشخصية خاصة ، فان العـامل السلبى ، كالهزيمة مثلا لا يمكن أن يكون ذا أثر فعـال فى تكوين قومية ما اذا لم يسبقه عامل ايجـابى وعزة المكانة وانفة الخلق ، وكبرياء النفس ، فى أى شعب من الشعوب ، بل انه لا بد ـ على الاصح ـ من توفر العامل السلبى ، فهو اشد اثرا واعظم خطرا فى التكوين القومى .

ومن القضايا المسلم بها أن العروبة تعرضت فى تاريخها الطويل بعـد سقوط بغداد ـ اذا اعتبرنا هـذه المرحلة بداية التعرض للعوامل السلبية ـ لصنوف شتى من القهر والاذلال والعبودية ، والتحكم ، واننا لنحيل القارىء العربى الى التاريخ لكى يتبين مدى ما تحملته هذه العروبة من الضغط حتى تكونت لديها امكانية الانفجار .. بالقومية العربية .

القومية العربيـــة والاشتراكية :

لكى نتمكن من تحديد علاقة القوميات وهى كمـا أسلفنا : مشاعر ، وأمال وأهداف واحدة ، بالنظريات كالاشتراكية أو غيرها ، لكى نتمكن من ذلك علينا أن ندرس أولا احتياجات هذه القوميات ، ومشاكلها التدريجية .

ووصفنا المشاكل « بالتدريجية » لأن الشعوب كالافراد تختلف مشاكلها باختلاف اعمارها الحضارية .

فالشعب البدائى ، تنحصر مشكلته فى تأمين الغذاء الضرورى ، والشعب الآخذ بسهم من المدنية يحاول أن يتغلب على الضائقات ويكون لنفسه ذاتية خاصـة ، والشعب المتمدين ، يواجه مشكلات القضـاء على الطبقات فيه ، وتطوير حياته العـامة ، وزيادة الدخـل وصيانة الاستقلال ، وتأمين الرخاء والصحة والضمان الاجتماعى لكافة افراده .

فمن هـذه الناحية يمكننا الآن ان نتساءل : ما هى مشكلات القومية العربية ؟ وهل تغيرت منذ ربع قرن ؟

للجواب على هـذا السؤال ينبغى لنا أن نرجع بالذاكرة القهقرى .. الى زمن الانتداب الفرنسى فى لبنان وسوريا والانتداب الانكليزى فى فلسطين والعراق ومصر ، وزمن الاحتلال الفرنسى لشمال افريقيا بأكمله .. فى هـذا الزمن بالذات كانت القومية العربية موجودة بأجلى وأبهى معانيها ، ولكنها كانت مغللة اليدين ، تواجهها مشاكل كبرى ، وتداهمها صعوبات هائلة :

الحدود المصطنعة بين البـلاد ، اسـاليب الحكم المختلفة ــ كالملكية والجمهورية ــ والحكومات الانتدابية المؤقتة ، جيوش الاحتـلال المسلحة ، العملاء فى كافة الطبقات ، ابتداء بطبقة الحكام وانتهاء بطبقة صغار الموظفين ، الجهل ، الاقطاعية ، الاسر الحاكمة ، الاتكالية ، الفوضى ، واخيرا .. المطامع الجشعة للدول المحتلة .

كل هذه الصعوبات كانت تتراكم على عضد القومية العربية ، وكانت تحول دون ركبها المظفر ، ولكنها ظلت تقاوم هذه الصعوبات واحدة واحدة ، بفضل خلود هذه القومية وقوة احتمالها العجيبة .

لقد استقلت سوريا واستقل لبنان ، واستقل العراق ، واستقلت مصر ، واحتفظت الدول المحتلة لنفسها فى البـلاد العربية « بموطىء قدم » اسمته اسرائيل ، ومن ثم شعرت هذه البلاد شعورها الطبيعى بضرورة الالتئام حول الفكرة الواحدة والمصلحة الواحدة ، والهدف الواحـد ، فتكونت الجامعة العربية . ولكن ، حين ظهر آن هذه الجامعة تضم النبلاء والصعاليك ، والسادة والعبيد ظهرت عليها بوادر الشلل ، وفقدت قيمتها العملية ، بدليل اختـلاق دولـة اسرائيل فى عهدهـا الميمون ، ثم سرت عدوى الاستقلال الى الشمال الافريقى ، فنهضت ليبيا ، وتحررت مراكش ، واستقلت تونس . وتبلورت القومية العربية أكثر من ذى قبـل ، واصبحت ضرورة ملحة .. ينادى بهـا الجميع .

ثم اصبحت المشكلة التى تواجه القومية العربية هى تنظيف الحكم ، فقد طالما مكث فى دسوت الحكم صغار ، وطالما تحكم فى الشعب العربى عبيد .

وانتصرت القومية على أدناس الحكم ، وأرجاسه ، وهدأ الحال فى مراكش وفى تونس ، وانقلب الوضع المهترىء فى سوريا وقضى على الملكية الفاسدة فى مصر ، واستقام الوضع فى السعودية ، وعمت البلاد الاغتيالات السياسة ، وكانت هذه الاغتيالات بداية الطريق لتنظيف دسوت الحكم ..

ثم تطورت مشكلة القومية الي مواجهة العدو المشترك ، ومنازلته ، والثبات بوجهه ، فتغير حكم وحاكمون ، وارتفت ميزانيات الدفاع ، ومصاريف الحرب فى البلاد العربية أرتفاعا ملموسا ، وجرت مبارزات مضحكة ، وكانت الدول الغربية تحاول ان تثبت — فى كل مرة — ان القومية العربية دائمة العجز ، دائمة الحاجة الى الغير .

ومن هنا برزت القومية لمواجهة مشكلة جديدة . مشكلة توحيد الجهود والتخلص من السيطرة وفك قيود الحصار الاقتصادى ، وهكذا عقدت اتفاقيات اقتصادية جبارة ، اذهلت الدول الغربية وقضت بسهولة على احتكار السلاح ، واختل ميزان القوى .

ثم انتقلت القومية لتحقيق مطلب جديد هو الوحدة . ومطلب آخر هو التسلح ، ومطلب ثالث هو الاستعداد أما مطلبها الاخير الآن فهو تطوير المستوى الاجتماعى .

القوميه العربيــة متحركة :

من هنا نرى ان القومية العربية متحركة وليست جامدة ، وانها متطورة وليست متأخرة ، فهى فى كل مرحلة من مراحل حياتها ذات هدف ورسالة ، بدأت رسالاتها واهدافها هكذا بالتدريج :

١ الاستقلال ، ٢ ـ الحكم الصالح ، ٣ ـ القوة ، ٤ ـ التحرر ، ٥ ـ الوحدة ، ٦ ـ واخيرا : تطوير المستوى الاجتماعى .

ولقد حققت القومية العربية اهدافها واحدا واحدا بعزم شديد ، ويقين عظيم ، وستحقق هدفها الاخير بالطريق العلمى الصحيح .. طريق الاشتراكية الصحيحة .

والدليل على ان القومية العربية متحركة ، هو ان قادتها وروادها الاوائل لم يكونوا فى البدء يلتزمون خطة واحدة ، وكانت الاحداث التاريخية نفسها تجعلهم وجهالوجه أمام مطالب محددة ، وتحتم عليهم ان يتخذوا موقفا معينا ، ففى زمن الاحتلال الاجنبى لم يكن للقومية من مطلب الا الاستقلال واتمام الجلاء ، ولم يكن العرب فى ذلك الحين يعملون لتحقيق الوحدة ، ولا يسعون للتسلح ولا يفكرون بالتطور الاجتماعى ، اذ ان هذه المطالب مع وجود قوات الاحتلال على الارض العربية ليست فى الواقع الا احلاما بعيدة المنال ، ومن حسنات القدر ان القومية العربية كانت واقعية فى نهجها السياسى ومنطقية فى كفاحها الاجتماعى ، فلم تكن تعالج الداء الا بالدواء ولم تكن تشهر كل اسلحتها لكل معركة . بل كانت تصعد السلم درجة درجة ، وها هى ذى اليوم تواجه اخطر مراحل وجودها ، وادق فترات حياتها ، فترة النهضة الاجتماعية والاقتصادية .

الاشتراكية والنهضة العربية :

اصبح من ترداد القول أن نبين أن الشعوب العربية كانت منذ أول عهدها فريسة « الطبقات » بالرغم من ان الاسلام ـ وهو الدين السائد فى بلاد العرب ـ قد حارب الطبقية محاربة لا هوادة فيها ولا لين ، وبالرغم من أن الخلق العربى لا يسيغ التعالى ولا يطيق مظاهر العبودية والذل،ولكن الواقع هو أن نظام الطبقات كان معروفا عند الشعوب العربية ، وهذا النظام وان لم يتخذ شكل النظام الغربى ، ولم يكن فيه نبلاء ، وسوقة ، واكليروس

وملوك وعبيد ، فانه تلون بلون دينى ، وتحزب احزابا اسلامية بحتة ، ومن المعلوم ان المجتمع العربى فى بداية عهده كان عبـارة عن طبقة واحـدة هى « طبقة المحاربين » وهم المجاهدون فى سبيل الله ، ثم انفرط هذا العقد وتوزع الناس الى امراء وسادة وشعوبيين ، والى عرب وعجم وأحرار وموالى والى صناع وتجار وفلاحين .

ولقد كان الصناع والتجار والفلاحون ، الطبقة الوحيدة الباقيـة منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وهذه الطبقة هى التى تحملت المغارم ، وهى التى بذلت الاضاحى ، وهى التى حافظت على الروابط الخالدة بين ابناء الشعب العربى ، ولا جدال فى أن المذاهب الانسانية ، التى تهدف الى الرقى الاجتماعى والاقتصادى ، وضعت كلها هذه الطبقة موضع التجربة ، ولا عجب فانها هى الطبقة الغالبة فى سواد الشعب وفيهـا تكمن أسس النهضات ، وقواعد الانطلاقات الثورية فى المجالات السياسية والاقتصادية والحربية والصناعية .

الاشتراكية طريق القـومية :

لقد انتهت القومية الآن من معركة الاعداد النفسى ، وحصلت ـ فى اغلب بلادها ـ على الاسـتقلال ، ووقفت على قدميها ، تواجه صـفعات اعدائها بصفعات اشد قسوة واكثر تنكيلا ، وطبيعة الأحداث اليوم ، ومفاهيم السياسية الحديثة تفرض على القومية العربية أن تسهم فى بناء الحضارة ، وأن تمد بساعدها الجبار لتقيم للانسانية طودها الشامخ ، وهى لن تتمكن من التمرس بهذا العمل الضخم ، ولن تستطيع القيام باعباء هذه الرسالة الا اذا تخلصت من الأمراض الأربعة : ١ ـ الانقسام ، ٢ ـ السيطرة الخـارجية الاقتصادية ، ٣ ـ الاقطاعية الداخلية ، ٤ ـ التأخر الصناعى .

ولسنا بحاجة الى بحث وتنقيب كبيرين ، لكى نصل الى النتيجة الحتمية وهى ان الاشتراكية هى السبيل الوحيد ، للقضاء على هذه الآفات الأربع

ولا شيء غير الاشتراكية يحقق الوحدة العربية ، ويقضي على السيطرة الخارجية الاقتصادية ويذيب الاقطاعية الداخلية فى بوتقة من المحبة والاخوة والتسامح ، ويرفع فى سهول البلاد وفى جبالها ، وفى صحاريها ووديانها ، مداخن المصانع الكبرى ، ويدير عجلات المعامل الضخمة التى توطد دعائم الاستقلال . وتمد مرافق البلاد بدماء جديدة ، وتدعم جيش البلاد ، وترفع معنوية الشعب ، وتجعله حقا وصدقا ندا قادرا على الوقوف بوجه الذين كانوا الى زمن قريب يمصون دماءه ويسرقون ثرواته ويتحكمون فى ارزاقه .

ان القومية العربية تنشد الرخاء الاقتصادى ، ولا شيء يحقق ذلك الا : « التصنيع » ولا وسيلة لتعميم التصنيع الا وسيلة الاشتراكية ، وتسخير ثروات الشعب من أجل رخاء الشعب وعزته .

وانه لما يملأ القلب فخرا واعتزازا ان تنهض فى الجمهورية العربية المتحدة اسس المئات من المصانع ، وان ترسى القواعد لأضخم المؤسسات الصناعية فى الشرق ، التى ستكون ولا شك المنارات الحديثة ، التى تستهدى بها العروبة طريقها ، وترفع القومية هامتها ، وترسخ اقدامها ، وتعود الى سابق عهدها ، رسالة انسانية نبيلة ، تساهم فى اسعاد البشر ، وفى توفير الرخاء لبنى الانسان .

ولن يمر زمن طويل حتى تحقق الاشتراكية العربية اهدافها ، فى كل مكان ، فتلغى الحواجز المصطنعة ، وتمحى الفوارق المفتعلة ، وتوزع الثروة توزيعا عادلا ويقف العربى فى تطوان ، ليشهد فى ربى النيل قوافل الشباب العربى الناهض ، يبنى امة ويصنع مجدا ، ويصعد الى الجبل اللبنانى ، ليبارك الضواحى الصناعية على ضفاف دجلة والفرات . والشعب العربى واثق كل الثقة ، أن أعداء القومية العربية هم وحدهم الخاسرون ، وأن القومية العربية هى المنتصرة فى النتيجة ، لانها مندمجة بمنطق التاريخ وتطورته ، ولأنها تحمل فى ذاتها جميع امكانات الانتصار .

بين العروبة والإسلام

* الاسلام فى كافة مظاهره : فى عقائده ، وعبادته ، ونظمه ومعاملاته لم يكن لطائفة معينة او لجنس خاص ، بل كان يطالب الانسانية كلها بعقيدة واسلوب فى العمل ، ولا يفاضل بين الناس الا بمقدار ما يقدمون من اجل العقيدة ، وبنوعية ما يعملون طبقا لهذه العقيدة .

* من حظ العرب ان اختيروا لرسالة الاسلام ، ومن حظ العروبة انها كانت احد الوية الاسلام . وهو الذى افصح عن مواهبها وساهم فى تاريخها فامتزجت به فى امجد ادواره ، والمسلمون فى العالم لا يؤلفون قومية واحدة ولا وطنا واحدا .

* ان العروبة هى واقعنا الذى لا غنى لنا عنه ، وحاضرنا الذى لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذى لا وجود لنا الا به . مسلمين ومسيحيين ، والذين يخلقون الاكذوبة القائلة بأن الاسلام هو القومية العربية هم المستعمرون .

قد يتخيل البعض ان موضوع العروبة بالذات ، والفصل بينها وبين الاسلام مركب صعب . غير انى قبل كل شىء ، احب ان اصارح القراء الأعزاء بأنى أفخر بعروبتى مثلما أفخر باسلامى . وانى لأسمح لنفسى فى هذا المقام ، ان اتبنى بعض الفرائد التى نطق بها الخالدون فأقول : لو لم اكن عربيا لتمنيت ان اكون عربيا ، ومن هذه الروح اصوغ عبارات بحثى هذا ، ومن وحيها سأحاول ان اسلط الأضواء حول هذه القومية العزيزة وانفخ فى حناياها قبسة من نار الحياة ونورها ، وانفض عن مرآتها الجلية ، بعض غبار

الزمن وبعض لطخات الصدأ ، عساها تعود كما بدأت قومية فتية بناءة ، تكمن فيها كل عوامل الخلود والبقاء .

فترة حاســـمة :

ان التاريخ الآن يمسك قلمه ، ويتطلع نحو البـــلاد التى تشرق منها الشمس ويرنو ببصره نحو الربـــوع التى تواكب مغربها ، والتاريخ حينما يمسك بالقلم ويرقب شعبا من الشعوب ، فان هذا الشعب قادم على أخطر مرحلة من مراحل حياته سلبا أو ايجابا .

ونحن العرب فى هذا الزمن بالذات يحق لنا أن نتفاءل مسبقا بالمستقبل الضاحك ، ويحق لكم ايها القراء الأعزاء أن تعتبروا انفســـكم من الخالدين لأنكم تواكبون فترة خالدة من تاريخ العرب ، هذه الفترة التى سيقرأ عنها احفادكم غدا ، وسيقولون : هنيئا لهم لقد شهدوا يقظة العروبة .

سيقول البعض : اننى اغرق فى التفاؤل ، وسيقول آخرون لقد نطقت عاطفته . ولكنى ادعو هؤلاء واولئك ، فاقول لهم انظـــروا الى مصر التى كانت الى عهد قريب تربط ماضيها وحاضرها ومستقبلها بالرعامسة والفراعنة وتسير فى ذلك النهج حقبا طويلة من الزمن ، لا ينالها منه الا الضيم والاحتلال والذلة والامتهان ، ثم اذا هى تصحو على فجـــر دافىء ، تنبع انـــواره من ذاتها ، من ذات الشعب المصرى ، فتظهر لها حقيقتها العربيـــة الصريحـــة ، وخيالها الفرعونى الكاذب ، وتفرض بهذه الحقيقة وجودها وارادتها واحترامها على دول الأرض جميعا .

لست أرد من وراء ذلك أن اذهب الى أن العروبة هى التى نصرت ارض الكنانة ، أو انها على الأقل هى التى عاونتها على اجتياز المحنة ، والتغلب عليها ، ولست اريد من ناحية اخرى ، ان انفى فعالية الوطنية المحلية وصمودها الجبار فى معركة الشعب المصرى . ولكنى اريد ان اقر حقيقة واحدة ، وهى

ان العروبة فى مصر وفى سورية وفى الأردن وفى لبنان هى المرحلة الناضجة من مراحل تطور الوطنية . وانه فى اللحظة التى يتفاهم فيها العرب جميعهم على انهم عقد واحد ، يشع جمالا أخاذا ، ويشكل فى مجموعه ثروة هائلة ، اما فى افراده فليسوا سوى بضعة احجار كريمة ، ليس لها قيمة العقد المنظوم ولا قدره . اجل فى الوقت الذى يتعارف فيه العرب على اختلاف دولهم انهم عقد ثمين واحد ، وان رابطة هذا العقد هى العروبة فقد عرفوا الطريق الذى يمتد بهم نحو الغاية التى ينشدها جميع شعوب العالم ، وهى الرخاء والعزة والسيادة والاستقلال .

بين العروبة والاسلام :

وانه لمن المؤسف حقا ، ان ينفخ بعض ذوى الأغراض من ابواق الاستعمار نغما طائفيا دنيئا ، لا غاية له ولا هدف ، الا تفريق الكلمة وتصديع الصفوف والاطاحة بالوحدة الوطنية التى تجمع شتات فئات هذا الوطن ، حول الميثاق الوطنى المعقود عام ١٩٤٣ والذى اعتنقه لبنان الرسمى بمجرد دخوله الجامعة العربية وابرامه ميثاقها وتوقيعه على بروتوكول الاسكندرية .

هذه النغمة المقيتة ، ارتفعت بها بعض الأصوات الناشزة ، ردا على الموقف الذى وقفه الشعب اللبنانى من قضية العدوان الآثم على مصر ، بقصد عزل لبنان عن المجموعة العربية ، وشل كل نشاط يمكن ان يقدمه لخدمة القضية الكبرى التى يناضل من اجلها العرب .

وقد دفعتنى هذه النغمة الى اختيار هذا البحث بالذات ، لأنها كانت تهدف الى الايهام بان العروبة تعنى الاسلام . وانه لا يمكن ابدا الفصل بين العروبة ، كقومية والاسلام كدين ، فهما متلازمان كل التلازم ، مندمجان كل الاندماج .

ومن المؤسف أيضا ان يقع فى هذه المزالق — عن حسن نية طبعا — بعض قادة الفكر فى هذا البلد ، فيخلطون بذلك مع الأسف بين العروبة

والاسلام ، ويزعمون ان مؤسس الاسلام هو مؤسس العروبة ، متجاهلين بذلك كل وقائع التاريخ وكل الحقائق العلمية التى هم ولا شك حريصون عليها حرصهم على معرفة الحقيقة .

وسنحاول الآن فى هذا البحث ان نجلو هذه النقطة الدقيقة الخطيرة ، التى يتمسك بها بعضهم عن سوء نية مدفوعا بعوامل كثيرة لا تشرف فى كل حال ، والتى ينادى بها البعض الآخر عن حسن نية ، دون ان يتحروا بذلك الدقة العلمية والتاريخية .

ولسنا فى هذا المقام نقف موقف المدافع عن العروبة ، لاعتقادنا انها ليست بحاجة الى دفاعنا ، ولا لنرد على فرد معين ، بل لنعرض بعض الحقائق التاريخية التى تثبت ان العروبة ليست فعلا هى الاسلام ، وانه وان كان من امجاد العروبة انها كانت جندى الاسلام الأول . فمن مظاهر قيامها بنفسها ، ان الاسلام ـ فى بعض مناسكه الدينية ـ قرر عاداتها وتقاليدها ، وأقرها حتى انها فى النهاية حملت اسمه ، وهى من أفعال العرب الأولين .

ثم ان الباحث فى هذا الموضوع يصادفه منذ البداية سؤال واحد : ما هو الاسلام ؟ وما هى العروبة ؟ وما هى الصلة بينهما ؟ وهل كان الاسلام كدين سماوى لايحمل على الاعتقاد بأنه ظاهر الرعاية للعرب دون غيرهم من الأمم ؟

الاسلام للانسانيه :

لننظر الى الاسلام نظرة عاجلة ، ولنحاول أن نستخلص منه بعض الصور الناطقة بانه لم يكن فى يوم من الأيام دين العرب فقط لاعتبار واحد بسيط ، وهو ان الله حسب المفهوم الاسلامى هو رب العالمين ، وان محمدا حسب التعبير القرآنى رسول للناس كافة .

والاسلام فى كافة مظاهره : فى عقائده وعباداته ، فى نظمه ومعاملاته ، لم يكن انانيا قط ، ولم يحارب الأديان التى سبقته ، بل دعاها اليه للمجادلة

والبحث بروح من الفهم العميق ، والسماح الرائع ، وسعة الصدر ، وحسن الخلق فقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » ، وكان ذلك بعد ان أقر لجميع الناس بحرية العقيدة « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم » .

وبعد ان وضع القاعدة المثلى للسلوك العقائدى الاسلامى الذى لا يؤمن بالاكراه ويقدس العقل النير « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وبعد ان أكد ان محمدا ليس الا نبيا يوحى اليه ، كما أوحى الى عيسى من قبله ، وكما أوحى الى موسى من قبلهما ، وكما أوحى الى داود ونوح قبل أولئك جميعا فقال تعالى « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » .

ولو ان الاسلام أقر للعرب بشىء من الفضل أو السابقة ، لرفع قدرهم وأجل شأنهم ، وأظهر ذلك للملأ . ولكنه جعلهم مسؤولين عن الفكرة وتنفيذها كغيرهم من الناس ، وانه ليس لواحد من بنى البشر أن يفضل أخاه أبدا الا بالتقوى (لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى) وذكر العربى بالذات . ثم انه من ناحية أخرى فرض على العامة اطاعة أولياء الأمر ، دون النظر الى عروبتهم أو الى أعجميتهم ، ودون التفريق بين ألوانهم وأجناسهم فقال : (اسمعوا وأطيعوا.ولو ولى عليكم عبد حبشى رأسه كزبيبة) .

ثم ان قريشا وهى القبيلة التى كان منها النبى ، وشرفت بنبوته فى أعين النسابين العرب ، وبلغت شأوا بعيدا ، قريش هذه فضل بعض الفقهاء شرف العلم على نبالتها حينما بحثوا قضايا الكفاءة بين الزوجين .

فأين هى — قرائى الأعزاء — آثار تدليل الاسلام للعرب ، حتى يتجرأ أناس على القول بأن الاسلام هو العروبة ؟

اسمحوا لى أن أكون صريحا الى أبعد حدود الصراحة ، وان أسير فى الشوط حتى النهاية . فهناك بعض الأسئلة تحرق شفاه الناس ولا يبدونها . وهناك بعض المخاوف تدمدم فى صدورهم ولا يظهرونها ، وأنا منذ نشأت عدو التخفى والخوف ، والرياء والحذر ، اذا كانت بضاعة رائجة بين الأخ وأخيه والشقيق وشقيقه .

العروبة لا تخيف أحدا :

لنتصارح ، فالعالم بأسره يعلم أن العروبة لا تخيف ، وليس منها أدنى خطر على جميع العقائد ، اسلامية ومسيحية ويهودية .

قلت اسلامية ، لأن فريقا من المسلمين يعتبر العروبة خطرا على الاسلام كاعتبار بعض المسيحيين لها ، فيجب محاربتها والقضاء عليها فى نظر الفريقين جميعا .

ان العروبة لا تخيف .. لأنها وطنية سامية وقومية هادية ، تجمع كل الملل والنحل .. ففيم الحيرة اذن ، وعلام الريبة والشك ؟ أمن الاسلام ، أمن ذلك الدين الحنيف العادل المترفع ؟

ان الذين يحاربون العروبة يريدون لها — قوة واقتدارا — ان تكون فى صف الاسلام ، حتى تتكون ضـدها جبهة من تجار الأديان المتحالفة ، ولأن نعتها بالاسلام ، وجعلها بديلا عنـه وجعله بديلا عنها يخـدم هؤلاء التجار ، ويوفر عليهم عناء كبـيرا فى اذكاء نار الطائفية وبث سمومها ، وبالرغم من اننا بصدد البرهنة على ان العروبة قومية من القوميات التى كثر فيها المسلمون وليست الاسلام نفسه ، بالرغم من ذلك ، فاننا سندفع بايجاز شديد عن هذا الدين بعض ما اتهم به معتقـدوه ، دون ان نجافى عنصر الموضوع ، لأن العروبة قرينة الاسلام وشريكته فى هذا الاتهام .

المساجد والصوامع فى القرآن الكريم :

لنستمع معا الى قول الله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » ألا نلاحظ فيه انه يعتبر صوامع الرهبان شقيقة لمساجد أتباع الاسلام ؟ ثم ألم يكن الاسلام نبيلا حينما قدم معابد النصارى واليهود على مساجد المسلمين ؟ ان سلوكه فى هذه الناحية سلوك مفعم بالتسامح والاكبار والاجلال لأهل الكتب السماوية من اليهود والنصارى . فقد حظر على المسلمين ان يستخدموا معابد الذميين لأداء الصلاة حتى لا يدعى المسلمون فيما بعد حقا عليها . وما زال يتخايل أمام ناظرى ظل الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، وهو قائم يصلى خارج كنيسة بيت المقدس ، لا لشىء الا ليؤكد للمسلمين عمليا احترام المسلم لأخيه المسيحى احتراما يقوم على محبته وتقديره للكنيسة .

أما ما فعله ذلك الصحابى الصادق أبو بكر رضى الله عنه ، وما أوصى به جنده حين سيرهم فى سبيل الله ، من اجتناب البغى والعدوان ، والامتناع عن قتل الأطفال والنساء والشيوخ ، وحينما نهاهم عن التعرض بقليل أو كثير للرهبان المنتشرين فى صوامعهم فى البلاد ، كل ذلك أصبح مشهورا بين الناس ومعروفا ، ولست أجد فائدة من تكراره فى هذا المقام .

الملوك المنحرفون :

لقد احترم ديننا أتباع الأديان الأخرى احتراما لا يكنه حزب سياسى فى القرن العشرين لأنصار حزب سياسى آخر ، واذا كانت الظروف السوداء قد جعلت على بعض العروش المسماة على الاسلام ملوكا يحملون أسماء اسلامية ، ويحكمون بغير ما أنزل الله ، كما حدث فى الأزمنة الأخيرة للاسلام ، فليست هذه جريمة الدين بل جريمة رجاله ، وليست مبررا للحملة عليه بل على القائمين بأمره .

ولكى نظهر مدى هذا الاحتـــرام الذى يضمره الاســـلام لسائر أدن الديانات الأخرى ، علينـــا ان نلجأ الى القرآن الكريم وهو أصدق دليل عندنا ، وفيه ما يدل بوضوح على اعتباره التقديسى لروح الموسوية الصحيحة اذ يقول « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا » وفيه ما يطمئن المسيحيين صراحة بأنه يجل المسيحية الربانية ايما اجلال ، ويكرم نبيها ايما تكريم اذ يقول له « يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا » .

رسالة الاسلام وحقيقة القومية :

اظننى استطعت الايضـــاح عن موقف الرســـالة الاســـلامية من اتباع الرسالات الأخرى ، واستطعت وضع النقاط على الحروف ، حـــول بعض الالتباسات التى كانت تثار ، وتثور من ورائها الشكوك عن ارتباط الاسلام بالعروبة ، وانى لأعتقد أنه امكننى الاثبات ، بأن الأول هو دين سماوى لا تهمه القوميات ولا الشخصيات بقـــدر ما يهمه العمل والاخلاص ، وان الأخيرة هى قومية قائمة بذاتها ، لها تاريخها وحضـــارتها ومدنيتها السابقة على الاسلام وعلى المسيحية أيضا . وانها تتميز بالمعنى التاريخى بخطوط كبرى ، وشخصية منفردة جديرة بالبحث والدراسة .

بقى الآن ان تثبت للعروبة تاريخها المنفصل عن الاسلام ، وحضارتها الفردية ذات الطابع العربى الخاص ، وانها كان لها رجالها وأمجادها ، وكانت لها حقبة من الزمن لعبت فيها الدور الأساسى الأول ، فى سياسة هذه البلاد ، وحكمها وشؤونها . وقبل ان نخوض هذا البحث التاريخى الصرف ، نحب ان نوجه الأنظار الى بعض الملاحظات الهامة التى تعبر عن وجهة نظرنا تعبيرا صادقا بدون غموض .

أولا : على الذين يؤمنون بأن الاسلام هو العروبة ان يؤمنوا بالمقابل بأن المسيحية هى الانكليزية أو الفرنسية أو الايطالية أو الاسبانية .

ثانيا : من حظ العرب ان آمنوا برســالة محمد وحملوها الى جميع الانحــاء ، واذا كان انتســابهم اليــه ، يجعلهم بدلا عنه ، فلمــاذا تكون الاندونوسية بديلته أيضا ؟

وفى هذه المناسبة تحضرنى حادثة طريفة ، كلما مرت بمخيلتى ازددت اعجابا بالعروبة ، وتعلقا بها ، وازددات ايمانا بأننا هنا فى لبناننا الحبيب ، حملة رسالتها قبل غيرنا من الشعوب العربية . والحادثة هى : أن أول مجمع لغوى عقد فى الرياض عاصــمة المملكة العربية الســعودية ، وجرى فيه التساؤل الذى يحيرنا الآن ، وهو : هل نحن عرب قبل ان نكون مسلمين أم نحن مسلمون قبل أن نكون عربا ؟ .

وجوابا على هذا التساؤل تبارى مندوبو الدول العربية فى رسم الحلول وترتيب النتائج .

أما مندوب لبنان وكان يومها الشيخ عبــد الرحمن سلام أمين سر الفتوى اذ ذاك فقد ارتجل هذين البيتين :

قال عبــــد العزيز قولا حــكيما ... والصـــــواب الذى يقــول الامام
نحن قبل الاســـلام عرب ولــكن ... نحــن بعــد الاســلام عرب كرام

حضـــارة العرب قبل الاسلام :

والآن لنرجع الى التاريخ القديم نقلب صفحاته بامعان وتجرد ، بحثا عن حضارة العروبة ومدنيتها .

هذه واحة خصبة تمتد فى الطرف الشمالى من الصحراء العربية يكتنفها دجلة والفرات ، وســهول حلب وحمص وانطاكية ، وواحة دمشق وسهول حوران .

انها تدمر عاصمة أدينة والزباء ، عاصمة الدولة الفتية التى لعبت دورها الخالد فى التاريخ .

لقد تنبه الرومان الى الموقع الاستراتيجى الهام لهذه الواحة ، فأرادوا ان يستولوا عليها نحو عام ٣٦ قبل الميلاد . فهاجمها قائدهم مرقس انطونيوس عندما كان عائدا من حرب الملوك الارشكيين .

وما ان وصلت أنباء هذا الغزو الى مسامع التدمريين العرب ، حتى هبوا لملاقاة القائد الرومانى الغازى دفاعا عن مدينتهم ، ونشبت بين الفريقين معركة من أعنف المعارك قدر فيها للتدمريين ان ينتصروا وان يحطموا النير الأجنبى .

ولكن الرومانيين لم ييأسوا فهم يعرفون أهمية المركز التجارى والحربى لمدينة تدمر ، ويعرفون ان الاستيلاء عليها ضرورة من ضرورات البقاء لامبراطوريتهم ، فعمدوا الى فرض الحصار الاقتصادى عليها ، وانبروا يعتدون على القوافل التدمرية ، وينهبونها بعد ما صمد فى وجههم جيشها الباسل .

وظلت تدمر على صمودها نحوا من قرن ، ولكنها اضطرت امام الضيق الاقتصادى الناتج عن الحصار ، وتوالى غارات الرومان على تجارتها ، اضطرت الى الارتماء فى حضن الامبراطورية .

ولكن ارتماءها هذا لم يفقدها طابعها الحضارى ، ولم يوقف نمو مدنيتها مما ساعدها بعد قليل على الانتفاض والثورة فى وجه الفاتحين .

وكان ذلك فى عهد اذنية الأول ابن السميدع وهو من قبيلة عربية كبيرة من القبائل المعروفة عند الفرنج باسم SARRASINS وهى محرفة من لفظ « الشرقيين » .

لقد كان أذينة يتصرف فى صباه كما يقول المؤرخ (ن. بوليون) تصرف الرجل ، وكان يصطاد السباع والفهود والدببة وغيرها من الوحوش الضارية . وكان يحتمل فى سهولة ويسر الحر اللاهب والبرد القارس فى

السهول والجبال والغابات . كما كان يتحمل متاعب هـذا الصيد فى رضى وسرور ، وبفضل هذه الرياضة المفضلة استطاع الا يرى أوار القيظ ، واهباء الزوابع فى معارك فارس غير أمر عادى لا يعبأ به ولا يؤبه له .

لقد كان أول عمل قام به أذينة العربى خلع سلطة الرومان ، وتحرير تدمر ، والتحالف مع سابور ملك فارس الذى كان خطره يقترب يومئذ من بلاد الشمال .

غير ان سابور منى فى احدى معاركه مع الرومان باندحار هائل ، حمله على التراجع الى الفرات ثم الى فارس ، ومكن للخطر الرومانى ان يقترب من الشرق ومن تدمر بالذات ، فأدرك أذينة ان الرومان سيسحقون جيشه ، وسينتقمون منه جزاء ثورته عليهم ، وادرك ان سابور حليفه لا يستطيع تقديم المعونة اليه بعد اندحاره الفظيع فى بر الشام امام جحافل الرومان ، فلجأ الى ذكائه وسعة حيلته كيلا يعرض تدمر لاستعمار رومانى جديد .

وقرر سلوك نهج سياسى جديد ينقذ مملكته ، فأعلن ولاءه للرومان ، وذهب لمحاربة سابور باسمهم ، ثم ارتد الى تدمر وقبع فيها يترقب الفرص ويتحينها للسيطرة على جميع البلدان العربية وطرد النفـوذين : الرومانى والفارسى معا .

ومرت رومة بعهد الانحطاط والضعف ، وكان سابور قد استعاد قواه فشن على الرومان حربا ثأرية كتب له فيها النصر .

وفكر أذينة فى موقفه تجاه هذا الوضع ، واحس ان سابور يبيت له الشر فحاول ان يتقرب اليه تجنبا للاصطدام به ، الا ان سابور داخله الغرور والصلف فكان لا مفر لأذينة من ان يحاربه .

وقدر للبطل العربى ان يدحر سابورا وجيشـه ، وان يحطم كبرياءه وعنجهيته ، بما أوتيه من قوة البأس والذكاء ومهارة التصميم .

وانكفأ أذينـــة لمقاتلة الرومان فســـار الى حمص ، وحاصر الجيوش الرومانية فيها وتمكن من فتح المدينة وقتل قائدها (كياتوس) .

وتم لأذينة اخراج الرومان من شـــمالى سورية ، وتحقق على يده قيام مملكة عربية مستقلة .

وكان أول ما سعى اليه مؤسس هذه المملكة ، هو القضاء على الاضطهاد الذى كان نصارى الشام فى انطاكية وحمص ودمشق وقيسارية عرضة له ، فأطلق لهم الحرية الدينية وأوعز الى الوثنيين — وكان هو وثنيا — أوعز اليهم الا يتعرضوا للنصارى فى قضاء فروض عبادتهم ، واباح لهم اقامة البيع والكنائس .

ولكن أذنيه لم يفسح له لتزدهر الحضارة العربية التدمرية على يديه ، فكثيرا ما يكون المصلحون الثائرون أول الضحايا لثورتهم . وهكذا قدر لأذينة ، فلقد غدر به أحد أبناء عمه ، بينما كان يتوجه الى حمص لقتال القائد الرومانى هرقليوس .

قد يقول قائل : ان الطموح لا الاحساس العربى هو الذى دفع أذينة لأن يبنى ملكا له .. فنجيب : ان عنصر الطموح لا يمكن نكرانه حقا ، ولكن الاحســـاس القـــومى كان هو أهم الدوافع التى حملت أذينـــة على التمرد والوقوف فى وجه أقوى دول عصره ، بل الدولتين اللتين تسيطران يومذاك على العالم وأعنى بهما الفرس والرومان .

فلقد حز فى نفس هذا البطل ان يظل قومه مطايا اطماع الفاتحين ، وان تظل بلادهم موطئا لسنابك خيلهم ، فآثر المغامرة ونذر نفسه لتحريرهم من العبودية ، وجاءت من بعده زوجته الزباء أو زينب أو زنوبيا كما أطلق عليها الرومان واليونان ، جاءت من بعده تكمل رسالته وتعمل على ازدهار المملكة .

فلقد تولت الحكم فى سنة ٢٦٧ ميلادية ، بعد أن ورث ابنها البكر « هبة اللات » لقب ملك الملوك ومصلح الشرق .. وأخـــذت تنظم شؤون

مملكتها وتوجه اهتمامها — جل اهتمامها — الى الجيش ، وتشرف بنفسها على التمرينات العسكرية ، وتشاطر جندها شظف العيش وخشونة الحياة ، وتعد نفسها لتحمل أعباء القيادة .

وكان النفوذ الرومانى بعد وفاة أذينة قد انبسط من جديد على المملكة التدمرية فراحت الزباء ترقب الأحداث ، حتى اذا دبت الفوضى فى الامبراطورية الرومانية أعلنت ابنها « هبة اللات » قنصلا ثم امبراطورا .

وكانت الخطوة الثانية التى أقدمت عليها هى ضرب نقود باسم ابنها الامبراطور ووضعها فى التداول ، وفى عام ٢٧٢ ميلادية قامت بهجوم صاعق على مصر فخلصتها من قبضة الرومان ، بعد ان سيرت لهذه الغاية جيشا مؤلفا من سبعين ألف مقاتل يقوده (عبدوس) أو زيد كما يذكر الأستاذ كرد على فى كتابه خطط الشام .

وما كادت أنباء النصر تصل الى تدمر ، حتى سارعت الزباء فأعلنت نفسها قيصرة و « هبة اللات » قيصرا ، وضربت نقودا جديدة تحمل صورتها ولقبها الجديد كما تحمل صورة « هبة اللات » ولقبه .

وسار عبدوس الظافر الى آسيا الصغرى ، فبلغ أنقرة وسواحل البوسفور ، وكانت غاية زنوبيا من هذه الحملة الجديدة ، تحرير آسية من النفوذ الرومانى ، ولكن جيشها عاد دون قتال عندما لاحظ تصميم الآسيويين على ابقاء النفوذ الرومانى .

وكان من الطبيعى ان يحقد الرومان على تدمر ، وان يحاولوا هدم سلطانها ، فحشدوا قواهم ، وهاجموا مصر ، فأعادوا سلطانهم اليها رغم مقاومة المصريين الضارية . عندئذ رأت زنوبيا ان تركز الدفاع عن مملكتها ، ولكن (أورليان) امبراطور الرومان ، وهو الذى يعرف بسالة التدمريين ، لجأ الى الحيلة والخديعة فتظاهر بالانكسار فى احدى المعارك ورجع عن انطاكية ، ثم أمر جنوده بنصب كمين وراء تلال المدينة وبساتينها .

وظن التدمريون ان الرومان قد هزموا فعلا ، فاندفعوا ليقعوا بالكمين ويمنوا بخسارة فادحة ، رغم براعة عبدوس فى الانسحاب الى حمص ليجعل منها خطا دفاعيا جديدا عن المملكة .

وفى سهل حمص رأت الزباء ان كفة الرومان العسكرية هى الراجحة فجمعت مجلس قيادة الحرب للتشاور ، وسرعان ما تقرر التراجع الى تدمر واتخاذها حصنا أخيرا .

وحاصر أورليان تدمر وطال حصاره لها ، وعز على الزباء ان تستسلم فامتطت هجينا وانطلقت قاصدة بلاد فارس لتطلب نجدة سابور ، ولكن جنود الرومان أدركوها وهى تعبر الفرات فقبضوا عليها وأعادوها أسيرة .

وعظم عليها ان تنهار مملكتها ، فأعلنت وهى فى اسرها الصوم عن الطعام الى ان فاضت روحها ، فانطوت بموتها صفحة من صفحات النضال العربى ، وانهارت تدمر عاصمة الثورة على الاستعمار فى القرن الثالث الميلادى ، وحاضرة العاهلين العربيين العظيمين أذينة والزباء .

الغساسنة وبنو تغلب ومملكة سبأ :

تعالوا معى نسير عبر التاريخ .. نودع تدمر وحضارتها ، لننشر صفحة أخرى من صفحات المجد العربى قبل الاسلام .

ها نحن أولاء .. فى مشارف الشام بين مضارب الغساسنة .. فهلموا نستنطق التاريخ عن أمجاد هؤلاء السمر الأشاوس ، الذين بنوا ملكا ، وأقاموا حضارة ، قبل انبثاق الفجر الاسلامى .

ان الحديث عن الحضارة النامية فى مرابع هؤلاء العرب حديث محبب ، ولكنه آثير أيضا عن قبيلة أخرى مسيحية عربية ، هى قبيلة بنى تغلب التى اشتركت فى معارك عربية خالدة ، واشتهر منها شاعر كبير هو الأخطل . وأجدنى الآن مدفوعا لتلمس معالم حضارة عربية أخرى فى الصحراء العربية

السمراء ، وفى اليمن التى أطلق عليها الفرنجة منـذ القدم لقب : العربية السعيدة .

تعتبر بلاد العرب الجنوبية من أقدم مراكز الحضارة عند الأمم السامية ، اذ كان موقع اليمن الجغرافى من أهم الأسباب التى أدت الى نشوء حضارة مترفة فى ديارها ، فسبقت بذلك المناطق الشمالية من الجزيرة العربية « وتتمتع هذه المنطقة بخصب وافر فى جبالها العالية وهضابها المخضرة ، وسهولها الفسيحة ، كما تتمتع بحكم وجودها على طريق الهند ، بموقع تجارى بالغ الأهمية ، وقد ساعد هذان العاملان على ازدهارها ونمو الحضارة فيها ، ولقد أطلق الدكتور حتى على عرب اليمن اسم فينيقيى البحر الجنوبى ، لأنهم رسموا خرائط هذا البحر ، وسيطروا على رياحه ، وتحكموا فى تجارته فى الألف والخمسمائة سنة قبل المسيح .

وكانت لليمنيين طرق تجارية أخرى فى البر من حضرموت الى قارب ، ومنها الى مكة والبتراء ، ثم الى سورية ومصر والعراق . وكانت لغة سكان تلك البلاد اللغة الحميرية ، أى اللهجة العربية الجنوبية ، الى زمن يقرب من الفتح العربى ، حين اخذت اللهجات الشمالية تتمتع بقوة وعزة ، بينما أخذت اللهجات الجنوبية تتدهور « وكان ذلك لفقدان بلاد اليمن حريتها واستقلالها ، فتدهورت حضارتها وانحطت ، فاستلزم ذلك انحطاط اللهجات الجنوبية ، وتلاشت لتحل محلها العربية الشمالية التى كانت تتمتع بدفق من الشباب والفتوة .

أما الدول العربية التى تداولت الأرض اليمنية ، فأقدمها الدولة المعينية التى ازدهرت فى اليمن بعد سنة ٦٥٠ قبل الميلاد .

وقد سيطرت فى نهضتها على معظم أقسام الجزيرة العربية ، وما تزال معين العاصمة التى تحمل اسم الدولة المعينية الكبرى حتى اليوم ، كما ان معان المصرية تدلنا على امتداد تلك الدولة الى أطراف البلدان المجاورة للجزيرة .

ولقد استطاع المؤرخ « موللر » ان يكتشف أسماء ستة وعشرين ملكا من ملوك دولة المعنيين اليمنية .

وكان السبائيون ورثة المعنيين ، قد بسطوا نفوذهم وسيطرتهم على جنوبي الجزيرة العربية وحكموها ، وكانت عاصمتهم قديما (مراوح) ثم أصبحت مدينة مأرب المشهورة بسدها العظيم . وكانت هذه المدينة ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب .

المملكة الحميرية :

وبعد سنة ١٥٥ قبل الميلاد ، يبدأ عهد دولة عربية جديدة ، هى المملكة الحميرية الأولى امتد بقاؤها حتى سنة ٣٠٠ بعد المسيح وكانت عاصمتها (ظفار) ويروى لنا التاريخ قصة القائد الرومانى (اليوس غاليوس) الذى حاول غزو اليمن على رأس جيش رومانى لأهميتها التجارية ، ولكنه لم يوفق فى غزوه وعاد مع بقايا جيشه المنهزم الى مصر .

فى هذه الحقبة من التاريخ ، عبر العرب أرض كوش ، ووضعوا فيها أسس المملكة الحبشية ، فكان لهم الفضل الأول فى انشاء تلك الحضارة الحبشية . وبنى ملوك حمير ، تخليدا لاسمهم قصر رغدان ، الذى بقى قائما نحو (٦٠٠) سنة وشاهده الهمذانى ووصف روعته ، وما حوى فى بنائه من آيات الفن والزخرف .

حضـــارة اليمن :

وفى القرن الأول بعد المسيح ، ينحرف التاريخ انحرافا خطيرا ، يؤدى فى النهاية الى تلاشى سيطرة كل من اليمن وتدمر والبتراء ، وذلك ان العرب اليمنيين وكانوا كما قلنا يسيطرون على طرق التجارة بين الشرق والغرب ، ويفرضون رسوم المرور على البضـــائع ، ويجبون منتجات بلادهم بأسعار باهظة . وكان عرب البتراء وتدمر والعراق ، يتحكمون من جانبهم بالتجارة

الشرقية الى ان سقطت مصر بيد الرومان ، فأعاد بطليموس الثـانى فتح القنال القديمة بين النيل والبحر الأحمر ، وتمكن الرومان بمساعدة الأحباش من الوصول الى المحيط الهندى ، فتم بذلك القضاء على السيطرة التجارية لليمن والبتراء وتدمر . وبدأ عهد الانحطاط فى اليمن مع قيام الدولة الحميرية الثالثة ، التى تدخل المسيحية واليهودية فى أيامها بتلك الاصقاع ، فتستبدل الحكم وينقسم عرب اليمن الى يهود ونصارى ، ويتآمر « ذو نواس » آخر ملوك حمير على نصارى اليمن الغربى ، لخضوعهم لنفوذ الحبشة ، فيدبر لهم مذبحة فى عام ٥٣٣ م ويتنادى النصارى الى الثأر ، ويعبر سبعون ألفـا من نصارى الحبشة بأمر من امبراطور بيزنطية أرض اليمن ، ليتحكموا بأهلها جميعا من نصـارى ويهود بعد ان زعموا انهم جاءوا لحمـاية النصـارى والثأر لهم .

وتجدر الملاحظة هنا ان هذا الأسلوب الاستعمارى ، ظل الى يومنا هذا وسيلة بارعة من وسائل الدول الكبرى لتفريق الشعوب الصغيرة واستعمارها وفى هذه الفترة يتهدم سد مأرب العظيم على يدى القائد الحبشى (أبرهة) ويتعذر ترميمه ، ويهجر بنو غسان واللخميون اليمن الى حوران والحيرة ، وكذلك يفعل الكثيرون من بنى طى والتنوخين وكندة .. وكثير غيرهم من عرب اليمن .

وبقيت اليمن مستعمرة حبشية الى ان قام (سيف بن ذى يزن) يريد تحريرها بتعاونه مع الفرس ، ولكن آمال القائد العربى أصيبت بالفشل حتى وجد ان الفرس ينوون الحلول مكان الجيش الحبشى فى استعمار اليمن .

وهكذا استبدلت اليمن استعمارا حبشيا باستعمار فارسى ، ظل مسيطرا الى أن ظهر عرب الشمال فى القرن السابع بعد المسيح فى احدى الحملات التى شنها اتباع الدين العربى الجديد .

نهاية المطاف :

هذه ملامح من حضارة العرب قبل الاسلام ، وليس باستطاعة أى مؤرخ مهما كانت مقاصده وغاياته ، ان يشوه حضارة اليمن الزاهرة ، أو ان يتجاهل الأنباط ، حلقة الاتصال بين تدمر وغــزة ، وخليج فارس والبحــر الأحمر واليمن ، أو اهمال حضارة سلع وتدمر والمناذرة والغساسنة .

وهكذا نسير فى معارج التاريخ ، فنجد المسيحية تدخل الجزيرة فينتصر الكثيرون من أبنائها ، ثم تنبثق الأرض العربية عن الرسالة المحمدية ، فيكون الاسلام دين القومية العربية وابنا عبقريا لها .

موجات الاســتعمار والبلاد العربيه :

كيف لا يكون العربى عربيًا لأنه اعتنق المسيحية أو الاسلام ؟ وما علاقة الدين — كرسالة سماوية انسانية لكل الناس — بالقومية المختصة بشعب من الشعوب ؟ لقد كانت العروبة ثم كانت المســيحية ، وكان بعدها الاسلام فعاشت هاتان الديانتان السماويتان فى الأرض العربية شقيقتين متجاورتين متجانستين . فمن أين جاء هذا الوهم الشائع بأن العروبة تعنى الاسلام ؟ وبأن المسيحيين فى هذا الشرق العربى غرباء ، ليس لهم من أمجاد هذه الأمة العريقة ما للمسلمين ؟

انه الاستعمار .. الاستعمار الذى يحاول دائما ان يندس فى صفوفنا ليفرق ويسود ، الاستعمار التركى الذى جاء من قبل ليحتضن المسلمين كما يدعى ، فاذا به نير ثقيل يثقل أكتاف المسلمين قبل المسيحيين ، واذا بالثورة التحررية تنطلق من صفوف كل المواطنين الشرفاء ، دون النظر الى دياناتهم المختلفة ، واذا بأعواد المشانق ينصبها السفاح التركى جمال ، لقادة الحركة التحريرية مسلمين ومسيحيين ، واذا بالدماء المهراقة تنصهر فى وحدة وطنية رائعة ، هى شىء من هذا القبس الحى المتوثب فى روح كل فرد . انه الشعور

القومى ، الشعور بالوطنية الصحيحة الصادقة التى تلف الجميع فى النكبات وتصهرهم ببوتقة الوحدة الوطنية .

ويمضى الاستعمار التركى غير مأسوف عليه ، وتتنشق هواء الحرية ملء رئاتنا ولكن هذه الحرية ، ما تلبث ان تختنق بين قبضتى عملاق جديد من عمالقة الاستعمار ، انه الاستعمار الفرنسى وزميله الانكليزى الذى جاء هذه المرة ليحميى المسيحيين من المسلمين . وكانت وسيلته هذه المرة تجزئة الوطن الواحد الى أوطان وكيانات ، كان بعضها من نصيب فرنسا ، والبعض الآخر لقمة سائغة للانكليز .

ولكن الاستعمار أثبت مرة أخرى انه لا يحمل اليمن والخير والسعادة لفريق من المواطنين دون الآخر ، غير انه يحمل لهم جميعا الذل والمكر ، والحقد والاستغلال وشرور العبودية . فاذا بالنضال من أجل الحرية يتجدد قويا عنيفا عند جميع المواطنين مرة أخرى تحت راية الوطنية الحقة ، التى يتسع صدرها لجميع الديانات السماوية الكريمة .

هكذا شاء الاستعمار ان يقنع الاقلية المسيحية فى الوطن العربى ، أن وحدة هذه الأقطار هى وحـدة دينية فحسب ، يجمعها الاسـلام ، وتاريخ الاسلام ، ورسالة الاسلام ولكن الفئات الواعية كانت تلقم هذا الاستعمار حجرا كلما طاب له ان يردد هذه النغمة ليمتص خير أرضنا ويسرق رخاءها .

ليعلم الاستعمار :

ألا فليطمئن الاستعمار أيا كان نوعه ، على سلامة المواطن ، أى مواطن فى هذه الديار ، وليفهم ان المسيحيين من هذه الأمة عرب قبل غيرهم ، لهم ما لغيرهم من أمجاد العروبة . ساهموا فى بناء عزها ، وانهمرت دماء شهدائهم مع دماء اخوانهم المسلمين ، كلما تعرضت هذه البلاد لجور الطغـاة الغزاة ونكباتهم .

وليعلم الاستعمار الذى ينصب نفسه وصيا وحاميا لحقوق الشعوب الصغيرة ، ليعلم اننا جميعا بخير ما دام هو بعيدا عنا .

لقد كان هذا السبب من أهم الأسباب فى اشاعة هذا الوهم المغرض ، ولكنه لم يكن الوحيد ، فلقد فصلتنا عهود الاستعمار البغيضة عن التاريخ العربى ، فجهلناه أو جهله معظمنا جهلا فاضحا . وساعد على ذلك الثقافة الأجنبية التى لم تكن تلقننا العلوم فحسب ، بل تلقننا معها ان ننسى تاريخنا ، وان نهمل تراث أجدادنا الحضارى ، ليكون جيلنا جيلا منقطع الصلة بماضيه ، يعيش حاضره الأسود القاتم بائسا محطما ، فيندفع الى احضان الحضارة الغربية التى تقدم اليه على أطباق من ذهب ، فيكون بذلك قد فقد عروبته الأصلية ، وأصبح عضوا مشلولا غير ذى فاعلية فى جسم العالم الكبير .

كانت هذه الأسباب تتراكم على الشرق العربى ، فى فترة سوداء من تاريخه ، فى عصر انحطاط تروج فيه الشائعات ، وتسود فيه المغالطات ، وبعض الناس ، والواعون منهم يحاربون اخطارا أكبر من هذه ، والبعض الآخر يتخبط فى محيط من الجهل طاغ ، ونحن واثقون فى هذه الفترة التحررية التى تحياها بلادنا ، ان الضباب سينقشع ، وان الحقائق ستبدو جلية واضحة حين يكتب تاريخنا من جديد ، وحين نقضى نهائيا على هذا الدخيل الكريه .. الاستعمار ، وحين نقضى على اطماعه وأذنابه ومطاياه فى بلادنا .

دور الاسلام فى الوطن العربى :

بقى علينا ان نوضح مكان الاسلام فى الوطن العربى :

ان القومية كما نعلم هى هذه الأرض التى تنمو عليها مواهب الأمة من آداب وفنون وعلوم وحضارة . والاسلام فى تاريخ العروبة ثورة تحريريه نضالية وانتفاضة جريئة لهذه الأمة ، كشفت عن غيوم الجاهلية ، وحررت

الشعب العربى فى سورية ولبنان وفلسطين والأردن ومصر من نير الرومان ، كما حررت العراق من نير الفرس .

انه انقلاب جذرى فى حياة العرب وفى نفوسهم ، أهلهم لقيـادة العالم القديم لتحقيق مثل قيمة ، وحمل رسالة الخير والحق والعدالة لكل الناس .

فالاسلام اذن فى حقيقته يفصح عن مواهب العروبة وعبقريتها ، ساهم فى تاريخها وحمل رسالتها فامتزج بها فى أمجد أدوارها .. ومع هذا فالاسلام ليس العروبة ، والقضية العربية ليست قضية اسلامية لأن فى العرب مسلمين وغير مسلمين . ولأن القومية غير الدين .. والا لوجب ان يؤلف المسلمون فى العالم كله قومية واحدة ووطنا واحدا ، وان يؤلف المسيحيون بدورهم قومية واحدة ووطنا واحدا ، وهذا مغاير للحقيقة والواقع .

ولماذا نذهب بعيدا نسبر أغوار التاريخ ، ونكشف حقائقه ونحن نعيش واقعا جليا يوضح القضية من جميع جوانبها .

فليست تركية المسلمة من ألد أعداء القومية العربية ؟

الا تحتضن هذه الدولة المسلمة اسرائيل المسخ ؟ وتشترك معهـا ومع بريطانيا وفرنسا فى التآمر ضد القومية العربية المتوثبة ؟ والتى تنتفض من جديد لتستعيد مركزها فى العالم ، ولتحمل رسالتها فى الخير والسلام بعد ان فرض عليها الاستعمار هذه الهجعة الطويلة .

أفلا نجد تركيا المسلمة ، تطل من وراء كل مؤامرة أجنبية تكيد لهذه الأمة التى تنشد السيادة والحرية ، فاذا بالأرض التركية مسرح حيكت عليه وتحاك عليه مؤامرات الاستعمار ، واذا بالمسؤولين هناك أقطاب فى تدبيرها ؟

وايران والباكستان المسلمتان ، الا تحالفان مستعمرينا وناهبى خيراتنا دون ان تردهما رابطة الدين .

رسالة المواطن العربي :

في هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا وحياتنا ، وفي هذه الأيام العصيبة التي تمر بها دنيا العرب وهي تحارب الاستعمار بكل ما تملك من بأس وقوة ، وتتطلع الى الغد المشرق ، وتناضل الخونة والجواسيس وتجار الوطنية ، فتخوضها معركة حياة أو موت ، معركة شعب أصيل ذي حضارة وأمجاد ، معركة شعب يتطلع الى الماضي يستمد منه عزما وايمانا وتصميما ، وتصهره آلام الحاضر فيحاول ان يخلق من كل ذلك مستقبلا جديرا بأمته ، وان يتابع الرسالة الخيرة التي بشر بها أجداده .

في هذه الأيام يجدر بكل مواطن ان يعي هذه الحقيقة ، وهي ان رسالة القومية العربية الجديدة ، هي رسالة القومية التي لا تعرف العصبية أو الحقد ، رسالة القومية المتفتحة ، التي تود أن تعيش مع باقي القوميات في سلام وأمان ، لا استعمار ولا استغلال ولا عبودية .

هذه القومية التي تضمنا مسيحيين ومسلمين ، ساهمنا جميعا في بناء صرح حضارتها ، وامتزجت دماؤنا جميعا في معاركها ، انها ارث لكل منا ، لم يورثنا اياها نبي من أنبياء الله ، ولا حملنا اياها دين من الأديان ، بل كونتها لنا طبيعة حياتنا وسر ارتباطنا .. أرضنا هذه التي نحيا من خيراتها ، ونتنشق نسماتها ، ونحرث سهولها ووديانها ، ونسكن جبالها وشطآنها .

أجل ان العروبة هي واقعنا الذي لا غنى لنا عنه ، وحاضرنا الذي لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذي لا وجود لنا الا به .

نداء ونصيحة :

وليعلم الضائعون وراء سراب الاستعمار ، ان كل كيان في الأوطان العربية لا يستند الى عنصر الوطنية العربية ، هو كيان اعرج أبتر ، وان كل دولة تبني أركانها لهدف ديني ، وعلى طريقة طائفية كاسرائيل مثلا ، هي دولة

فاشـلة ، تحييها الظروف وتميتهـا الظروف ، وتقويها المناسـبات وتفنيها المناسبات ، وانها تحمل طبيعة فنائها فى ذاتها ، وسر زوالها بتكوينها .

ونصيحة أخيرة الى المبهورين بدعاية السوء ، الوجلين من العروبة نصيحة الى هؤلاء ألا تغرهم بهارج الاستعمار ، فسرعان ما يقلب لهم ظهر المجن ، ويتحول منهم اليهم اذا اقتضت ظروفه ومصالحه . وليعلموا ان كانوا غيارى على أبناء وطنهم ان العروبة اسمى درجات الوطنية وأرقى مراقيها .

ان معركتنا مع الاستعمار هى المعركة الفاصلة معركة المصير الى الأجيال القادمة ومبدأنا الذى لا يتحول هو : نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد .

المـــــرأة والحـــــريـــــة

* لدى المرأة من الامكانيات الطبيعية ما يندر توفره عند الرجل ، فاذا اختص هو بخصلة العنف فقد اختصت هى بخصلة العطف ، واذا كان واجبـه الكسب .. فطبيعتها الارضـاع ، واذا اعتـز وتبـاهى بأنه والد ، فانهـا هى الوالدة ، واذا صعر خده وشمخ بأنفه بأنه أب ، فيكفيها فخرا انها أم ، واذا امتاز بالقوة العضلية فقد امتازت بالقوة النفسية .

* فى القرن السابع للميلاد تندى قطر من صحراء العقـائد ، واطلت الشريعة الاسـلامية كالطل على المرأة وتعدتها بالعنـاية والرعاية ، وما من نظام تحت السـماء أنصف المرأة وناصرها وحررها مثل النظام الاسلامى .

* لقد أعطيت المرأة فى الاسـلام من الحقـوق والامتيازات ما يجعل المطالبة بالمساواة بينها وبين الرجل ، وهما من الأوهام ، وفرضت على الرجـل من الواجبات والأعباء ما يجعله هو فى موقف لا يحسد عليه .

تعتبر مشكلة حرية المرأة من أخطر مشاكلنا الاجتماعية ، وتحتل حيزا كبيرا من تفكير ساستنا وحكامنا وذوى الرأى فينا . ولا غرو فى ذلك ، فالمـرأة نصف الأمة ، ومن أهم العوامل الفعـالة فى بناء المجتمـع وخدمة الانسانية .

ومن المؤسف ان يكون تاريخ الأمة العربية فى العصور القديمة قد عبس للمرأة ، وتولى عنها ولم يبتسم لها ، وانما حفلت تلكم العصور بامتهانها ، ودأبت على ظلمها ، وسارت على سنة اذلالها وعدم الاحتفاء بها ، شأن كل أمة لا تزال فى دور الطفولة .

المرأة الجاهلية :

هذه المرأة ، التى تشغل اليوم نصف العالم ، وتملك ناصية التاريخ ، كانت فى العصور القديمة للأمة العربية ، سقطا من المتاع ، ولونا من ألوان الزينة ، ونوعا جديدا من أليف الحيوان . ولم يعترف العرب الأولون لها بأبده صفاتها : صفة الانسانية . فاشتركوا فى الزوجات مثلما كانوا يشتركون فى الأموال والمتاع ، حسبما روى الجغرافى اليونانى (سترابون) .

وأوضح دليل على ذلك ، بقاء بعض التقاليد الشاذة فى الزواج عندهم ، حتى ظهور الاسلام ، كزواج الرهط : وهو ان يتزوج رجال عديدون امرأة واحدة . وزواج الاستبضاع : وهو ان يدفع الرجل زوجته الى عظيم أو أمير ليستولدها رغبة فى نجابة الولد . ونكاح السفاح : وهو الزنى المعروف . ونكاح البدل : وهو ان يستبدل كل من الرجلين حليلته بحليلة الآخر .. الى غير ذلك من الأنكحة الشاذة الفاسدة ، مما يعتبر دليلا واضحا على ظلامية الحياة الأولى عند العرب .

ثم دار الفلك دورته ، ومشت الأيام خطواتها ، وقام العرب بنهضة عظيمة ، تشبه نهضتهم فى صدر الاسلام — مع الفارق — وسكبت ديمة هذه النهضة شآبيب الرحمة على المرأة ، وتلفتت الأمة العربية على تلكم الزهرة المتهنة ، وتنسمت عبيرها ومدت اليها يد العناية ، لا يد الاستعباد ، ولحظتها بعين الرعاية لا بعين السخط ، وأصاب المرأة العربية من هذه النهضة نصيب وفير .

المرأة والشرائع القـــديمة :

منذ نيف وأربعة آلاف سنة ، قبل ميلاد السيد المسيح ، جاءت شريعة حمـــورابى العربى ، وهو الذى يعتبـــر فى نظر فقهـــاء القرن العشرين أول المشترعين . جاءت ومنحت المرأة العربية رغم اعترافها بسيادة الرجل كثيرا من الحقوق ، واسبغت عليها وابلا من النعم ، لم تكن تتوفر لها من قبل ، اذ حددت سلطة الرجل العائلية فى الأحوال الشخصية ، وعاملت المرأة بشىء من العدل والرحمة فى باقى الحقوق العامة : فأباحت لها مزاولة الشؤون التجارية والأعمال الزراعية ، والانتظام فى سلك الكهانة ، فضلا عن أشغالها المنزلية .

كيف تساوى المرأة الرجل ؟

وهكذا أضحت المرأة فى هذه الناحية ندا للرجل ، ومساوية له تقريبا .

ولا غرابة فى ذلك ، فهى نصف الأمة ، ولديها من الامكانيات الطبيعية ، ما يندر توفره عند الرجل ، فاذا اختص الرجل بخصلة العنف ، فقد اختصت المرأة بخلة العطف ، واذا كان واجبـــه الكسب ، فطبيعتها الارضاع ، واذا اعتز وتباهى بأنه والد ، فانها هى الوالدة ، واذا صعر بخده وشمخ أنفه بأنه أب ، فيكفيها فخرا أنها أم ، واذا امتاز بالقوة العضلية فقد امتازت بالقوة النفسية .

هذا ما تسلحت به المرأة العربية .. وما مكنها يومذاك من مشاركة الرجل فى الحقلين المادى والاجتماعى ، بل زاحمته فى الميدان السياسى وزحزحته عن أرائك الحكم .

والتاريخ اعدل شاهد وأصدق رواية . فقبل ميلاد السيد المسيح ببضعة قرون تلقى شلمنصر الثانى الولاء والاحترام من ملكتين عربيتين ، ونصب اسر حدوك على أحد العروش أميرة عربية ، والسطر الذهبى الذى سجل فى تاريخ اليمن ، انما سطرته يد امرأة ، والسعادة التى رفلت بها الأرض السعيدة

انما هى من صنع امرأة ، انها بلقيس التى ورثت عن أبيها عرش اليمن لثلاثين عاما تقريبا قبل المسيح ، وكانت مثال الحاكم العـادل النزيه ، أحسنت فى الادارة أشد الاحسان وابدعت فى التنظيم ما شاء الابداع ، ووطدت دعائم أمرها ، ووثقت عرى ملكها ، وخلفت وراءها كثيرا من الرجال فى الميادين التى يزعمون انها وقف عليهم وملك لهم ، ووصفها الهدهد لسليمان حسبما ورد فى القرآن : (فقال احطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم) .

وكان فى ركابها حينما سارت الى سليمان مائة ألف من الفرسان ، وكان من أمرها معه ، ما سجله التاريخ وايدته السماء . فقد استبدلت بدين أبيها دين الله ، وقوضت فى البلاد عمـد الفوضى ، وأقامت بنيان النظام وظللتها بظل من الأمن والسلام .

ومع ذلك لم تنفرد بلقيس فى موكب الفخار ، ولم تتسنم وحدها القمة بين النساء العربيات ، بل شاركتها فى ذلك ملكة عربية أخرى لها عظمتها وقدرتها ، تلك هى زنوبيا ملكة تدمر ، التى لم تعوزها صلابة الرأى ولا مضاء العزيمة ، ولم تنقصها قوة البأس ولا متانة الشكيمة ، بل قامت تثبت للتاريخ ان المرأة التى تهز بيمناها سرير الطفل ، تستطيع أن تهز بيسراها العروش والممالك ، انتضت زنوبيا البرهان نفسه الذى يظن الرجل به نفسه فوق المرأة ، انتضت السلاح وأخضعت كثيرا من الممالك ، واقتحمت كثيرا من البلاد ، واقتحمت كثيرا من المعاقل .

ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال ، فبعد ان تبوأت المرأة العربية مكانا باذخا ، وبلغت عزا شامخا فى أيام العرب البائدة من عمالقة العراق ، وفراعنة مصر ، وعاد وثمود فى اليمن ، انقلبت الى ما بدأت به من البداوة والجهل ، وخنست عن مكانها الرفيع الى ما كانت عليه من الذل والضعة ، وحيل بينها وبين أهدافها ، وقلبت لها الأيام ظهر المجن ، فغلبت على أمرها ، وتحـكم

الرجال بها وتخيلوها متعة للرجل ، وزعموها دمية من دمى اللهو ، أو وسيلة من وسائل التسلية ، وليت غيهم وقف عند ذلك ، وليت طغيانهم لم يتجاوز حده ، فانهم تجرآوا على الله تعالى وسلبوا المرأة انسانيتها ، بل سلبوها الحياة ، وفى هذا يقول مناظر امرىء القيس معبرا عن شعور قومه ، مفصحا عن وجهة نظرهم :

فان تسألونى بالنساء فاننى بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ شباب عندهن عجيب

كره البنات :

ولمنزلة المرأة الوضيعة ، كانوا فى الجاهلية يستعضون من ولادة البنات بل كانوا يستترون اذا ولدت لهم بنت ، حياء من القوم ، كأنهم ارتكبوا عارا أو اقترفوا جريمة ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنهم بقوله :

(واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون !) .

الحجاب :

أما الحجاب بمعنى ستر الوجه — فقد كان قائما عند كثير من قبائل العرب فى الجاهلية ، واخبارهم تؤيد وجوبه ، واشعارهم لم تخل من التصريح بوجوده ، وفى ذلك يقول الربيع بن زياد العبسى فى رثاء مالك بن زهير :

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء جواسرا يندبنه يلطمن أوجههن بالاسحار
قد كن يخبئن الوجوه تسترا فاليوم حين برزن للأنظار
يضربن حر وجوههن على فتى عف الشمائل طيب الأخبار

على ان الرجال كانوا يتعففون عن مغازلة النساء ، فلا يحاولون متى خرجن ان يتبعوهن بأنظارهن ، بل كانوا يفاخرون بغض النظر عنهن ، ولمثل هذه الحالة أشار عنترة بقوله :

وأغض طـرفى ان بدت لى جارتى حتى يـوارى جـارتى مأوهـا

تعدد الزوجات :

أما من حيث تعدد الزوجات فى الجاهلية ، فلم يكن عند العرب حد محدود فى التزوج . وقد يتزوج الرجل امرأة أبيه بعد طلاقها أو موت أبيه ، وممن فعل ذلك عمر بن أمية بن شمس ، ولما كان الزواج عندهم سهلا لكثرة أنواعه ، فقد كان الطلاق مثله فى السهولة ، ولكن على غير حد وبدون نظام يكفل حق المرأة ، بل كان الرجل يضارها فى الطلاق ما شاء له ان يضارها واذا مات لم يكن لها نصيب الارث ، وكيف ترث وهى فى نظرهم من جملة المتروكات . وكان كل ما يصنعه الرجل بها ، انها ان كانت جميلة تزوجها ، وان كانت غير ذلك حبسها حتى تموت فيرثها .

هذه هى حال المرأة الجاهلية ، مبتذلة مستهنة ، لا يقـام لها وزن ولا يعترف لها بحق ، كانت تشترى وتباع كالسلعة والمتاع ، وكانت تورث ولا ترث ، وتملك ولا تملك ، كما كانت مرهقة بظلم الرجل ينتقص من انسانيتها ، ويتصرف بأموالها وممتلكاتها .

واختلف النـاس أيام الجـاهلية فيما اذا كانت المرأة انسـانا أو غير انسان ، وفى كونها تلقن الدين ، وتصح منها العبادة أم لا ، وفى كونها تدخل الجنة وملكوت السماء أم لا ، ولم يكن هذا حالها عند العرب فى جاهليتهم فقط ، بل كان كذلك فى أوروبة يوم كانت أوروبة تعيش فى ظلام دامس ، ويوم قرر أحد المجامع بروما ان المرأة مخلوق شرير يجب ان يعامل معاملة الحيوان . ولعل فرنسا هى أول دولة فى العالم أيام الجاهلية ، عملت على

انصاف المرأة ، حيث قررت بعد ولادة محمد وقبيل بعثته ان المرأة انسان ، الا انها خلقت لخدمة الرجل .

انقــاذ المرأة :

وفى وسط هذا النظام الجاهلى المليء بالمآسى المضطرب النظام ، تلفتت المرأة العربية التى هاضــها الألم ، وبهظها الاضـطهاد واثخنها الذل ، الى ما يحقق كامل انسانيتها ويقيلها من عثــرتها ويتبنى فكرة مساواتها ، فاذا بمحمد بن عبد الله ترســله القدرة الى هذا العــالم المضطرب ، ليحــد من طغيانه ، ويخفف من غلوائه وهيجانه ، فقرر للمرأة على الفور ، كامل انسانيتها وحريتها ، وساواها بالرجل فى النفس والجاه والكرامة ، وبذلك رفع عنها تلكم الآصار ، وحررها من قيود الذل والاســتكانة والهوان ، ونزل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) .

معطيات الاسلام للمرأة :

كفل الاسلام للمرأة العربية حرية التصرف ، واباح لها ان تملك العقار المنقول ، وان تهب وتشترى وتبيع ، وأن توصى وتقاضى كما تريد ، على حين ان الدول الكبرى وصاحبات الدعوة الى حرية الشعوب ، لم تتوصل الى ما وصل اليه الاسلام فيما يتعلق بحقوق المرأة وانصافها الا فى مستهل القرن العشرين .

أعطى الاسلام المرأة كل الحقوق التى أعطاها للرجل ، مدنية كانت أم سياسية فلها حق العمل بمزاولة كل مهنة شريفة تعجبها ، ولها حق الانتخاب ، والتمثيل النيابى والبلدى والادارى ولها ان تتولى مناصب القضاء .

نساء مسلمات :

ففى عصر الفاطميين تبوأت شجرة الدر عرش مصر ، وكانت أم المقتدر رئيسة لمحكمة الاستئناف ببغداد . وقصة أم المقتدر قصة المرأة الطموح التى أولدتها الأقدار ملكا على عرش بغداد ، وكان التاج على رأس وليدها بيد ان السلطة كانت طوع يدها ، وتاريخ هذه الأم الملكة هو تاريخ المرأة المكافحة ، التى حاربت بطانة الشر بأعمال الخير ، وحاشية السوء بمكر الداهية ، وثبتت الملك تحت قدمى طفل ، ما عرف عرش بغداد أشد هوانا منه ، مدة خمس وعشرين سنة . فضلا عن ركاكته واسفافه ، وفضلا عن مجونه وعبثه ، وفضلا عن خفته وهزاله .

ولقد سطرت هذه المرأة مع الزمن قصة الطيبة والدهاء ، والغدر والوفاء ، وقصة السياسة فى أحلك لياليها وأظلم عهودها .. عهد المقتدر .

أم المقتدر ! وما ادراك ما أم المتقدر ؟ انها جارية من ذوات الدل والجمال ، ومن أولئك اللواتى تجتمع لهن رجاحة العقل وصباحة الوجه ، ويدخلن التاريخ من قصور العظماء . فيهن ظرف وكمال ، يقرضن الشعر ويروين الطرائف ، ضالعات بالآداب عالمات بالقوانين ، يجمعن الى طريف الخبر معسول القول ، ويضفن الى ذلك دراية بأصول وسحر الغناء .

أم المقتدر .. وأى خليفة ؟ انه الصبى المقتدر ، لها فى كل أمر شأن ، ولها فى كل قضية حكم وميزان ، ترعى الأمور صغائرها وجلائلها ، وأى غرابة فى ذلك ، فالخليفة نفسه صغيرها ووليدها ، ترفع من تشاء وتضع من تشاء من أمور هذه الدولة البعيدة الأطراف .

باشارة من بنانها المخضب ، أو رنوة من طرفها الكحيل ، ينعزل وال من الولاة ، وينصب قاض من القضاة ، ويقوم قائم بغداد ويقعد قاعدها اذا رغبت السيدة (شغب) أم المقتدر .

من ذا الذى يعتصم به المغضوب عليهم من الأمراء ، ويؤوبون اليه ويرومون جواره ، ويرجون شفاعته ؟ انها أم المقتدر ، ومن لقلوب الملوك

— وهى كالبارود سريعة الغضب ، شديدة اللهب — من الذى يطفىء لهيبها ، ويكبت سخطها ؟ انها أم المقتدر .

العدل والفوضى أمران لا يستويان ، غير ان أم المقتدر وقرت العدالة فى الضوضاء ، ونشرت السلام فى أرض البغضاء ، واستوت فى كرسى القضاء ، وفصلت الخصومات ، وازالت العدوات ، فكان لها مجلس فى كل يوم جمعة ، تنظر فيه أمور الناس ، وحولها الفقهاء والعلماء والقضاة والكبراء ، تدهشهم جرأتها ، ويأخذهم علمها وفضلها ، ويعجبون لبعد نظرها ، وصدق حكمها ، وسعة أفقها .

وعلى كثرة كتب التاريخ وحدة ألسنة المؤرخين ، لم يقل واحد منهم ان أم المقتدر حكمت فظلمت ، ولا سطر أحدهم انها قضت بغير حق ، بل صمتوا أمامها صمت أبى الهول ، وسكتوا سكوت الليل ، وما من قوة أخرستهم وألجمت ألسنتهم الا الحق . فاكتفوا بالقول : ان أم المقتدر أمرت ونهت ، وتسنمت مركز القضاء تحكم بين الناس ، وتقضى فى خلافاتهم ، وتوقع العقاب وتفرض الحلول .

المرأة ومجالس العلم :

منح الاسلام المرأة حق الارشاد وحرية التعليم ، وخصها بمزيد من العناية والاهتمام ، وسوى فى ذلك بينها وبين الرجل حيث ورد (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وورد أيضا (اطلبوا العلم ولو فى الصين) والصين اذ ذاك وطن مشرك ملحد ، فليس معنى طلب العلم فيها تعلم الحديث والتفسير والتوحيد والتجويد ، والفقه وأصوله ، وانما معنى الحديث تعلم كل فن ضرورى للحياة ونافع ، وتقصى المعرفة مهما بعدت منابعها .

وبذلك ، بلغت المرأة العربية فى ظل الاسلام درجة اجتماعية رفيعة دونها مراتب النساء جميعا ، فى أنحاء العالم المعروف آنذاك ، حيث لم يجد العلماء أى حرج فى السعى الى امرأة لسؤالها عن حكم أو فائدة ، فهذه

عائشة زوج النبى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى حقها : (خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء) .

وهذه زبيده زوج الرشـيد ، وسكينة بنت الحسين . وشهدة فخر النساء ، وبوران حرم المأمون ، وقطر الندى امرأة المعتضـد ، وكثيرات غيرهن من فضليات السـيدات كن يجلسن مجالس العلم والأدب والمناظرة والمساجلة ، ويحكمن بين الشعراء والعلماء والخطباء .

المرأة والقتـــال :

أما فى علم الحرب والجندية ، فقـد ضربت المرأة العربية فى صـدر الاسلام المثل الأعلى فى الاستشهاد فى سبيل العقيدة ونصرة الحق واعلاء كلمة الله ، ومن هاتيك النساء العربيات اللائى ابلين فى الجهاد والانتصار على الأعداء عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وأسماء بنت أبى بكر ، وحسانة النميرية ، ورابعة العدوية ، والخنساء .. تلك المرأة التى شهدت وقعة القادسية مع بنيها الأربعة ، وخطبتهم تحضهم على القتال بخطبتها المشهورة المعروفة ، ولما بلغها نعيهم جميعا رفعت يديها الى السماء متضرعة قائلة (الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، واسأل الله ان يجمعنى معهم فى مستقر رحمته) .

ولعل أعظم ما يجب الانتباه اليه ، ان المرأة العربية فى عصر العباسيين كانت تتلون بلون مغاير لما كان قبلا ، بسبب دخول عنصر جديد على الحياة الاجتماعية العربية هو الموالى . وتتميز تلكم الفترة بازدياد الاهتمام بالأدب والشعر والغناء والموسيقى ، ونتيجة لذلك ، فقد تغلب الجانب الفنى على حياة المرأة العربية : وصادف ذلك هوى ورغبة فى نفوس الخلفاء والأمراء . الذين امتلأت قصورهم بالجوارى والاماء ، من كل صاحبة صوت وناظمة شعر أو قارعة دف ، أو ضاربة بوتر .

على انه مما يدعو الى الاعجاب أيضا ، ان المرأة العربية فى العصور الاسلامية الزاهرة ، لم تقتصر على تعلم العلم وتعليمه للمبتدئين فحسب ،

وانما زحفت الى مركز الأستاذية حيث جلس أمامها شيوخ كبار ، يلتمسون الاستماع اليها أو القراءة عليها أو الاجازة منها ، واستمرت حركة التحرر فى البلاد العربية سائرة على غاية من الدقة والانتظام ، حتى حل بالشرق الأدنى ما عكر صفوه ، وقلب من جديد أوضاعه ، وانتهى الأمر الى العثمانيين الذين كانوا أكثر ميلا الى الحياة العسكرية منهم الى الحياة المدنية المرفهة .

وعندئذ اختفى ويا للأسف على أيديهم ما نما وترعرع على أيدى سابقيهم ، فارتدت المرأة العربية على أعقابها ، ورجعت القهقرى الى عصور الظلام ، واحتجبت نهائيا عن المجتمع ، واقتصر نشاطها على كونها أما وزوجة وربة بيت وحرمت من مشاركة الرجل نشاطه فى مضمار الحياة الى أن ظهر عامل جديد فى الميدان ، تأثر الشرق به .. ذلكم هو النهضة الأوروبية الحديثة .

أوضاع المرأة الحديثة :

هذا عرض موجز جدا لوضع المرأة العربية فى التاريخ والأطوار المتناقضة التى مرت بها عبر العصور .

ومما تقدم يتبين لنا ان الاسلام قد توصل منذ زمن بعيد الى ما يطالب به المجددون اليوم ، وهو تحرير المرأة وتحقيق المساواة الفعلية بينها وبين الرجل لأنهما شريكان فى الانسانية . وكلمة الانسانية مأخوذة منهما جميعا . واذا كانت المساواة بين الجنسين فى الحقوق والواجبات ميزة ظاهرة تطبع العصر الحديث فى البلدان المتمدينة التى تستمد لغاتها لفظ الانسانية من الرجال وحدهم دون النساء حيث يقال مثلا : (HUMANITE) مأخوذة من

(HOMME) وهو الرجل . فقد سبق الاسلام كافة المبادىء وحقق المساواة بين أبنائه الذين تستمد لغتهم لفظ الانسانية من كلمة انسان ، ألا وهو مجموع الرجل والمرأة .

واجب الدول العربية :

واذا كان الناس لا يريدون تطبيق نظم الاسلام لغيرة أو لغرور ، فخليق بهم أن ينهجوا شرعة الأمم المتحدة التى تقرر المساواة بين الجنسين ، حيث تصرح المادة الأولى من مبادىء وأهداف هيئة الأمم المتحدة فى « سان فرنسيسكو » بانها تعمل على اشاعة وتشجيع الحقوق البشرية ؛ والحريات الأساسية لكافة الناس دون ما تمييز بين الأجناس واللغات والأديان أو تفريق بين الرجال والنساء ، وحسبما تنص المادة الثامنة من هذه المبادىء (بان المنظمة لا تفرض أى قيد يحد من دخول الرجال والنساء ضمن شروط متساوية فى جميع الوظائف رئيسية كانت أم ثانوية) .

نحن المسلمين من أنصار المساواة الحقيقية ، لا الوهمية ونحن ندعو ونعمل من أجل تحطيم القيود التى تكبل المرأة ورفع السدود التى تحول دون دخولها الحياة العامة . ونحن واثقون انه لن يأتى اليوم الذى تصبح الأمة العربية فيه سيدة نفسها واثقة من مستقبلها ، آمنة على كافة حقوقها ومصالحها الا حين تصبح المرأة العربية بالذات ، عضوا صالحا فى المجتمع ، وتستقل فكرا وعملا ونزعة . وتشعر انها انسان لها حقوق الانسان ، وتعمل وتجد وتصبح مواطنا سعيدا منتجا حرا بكل معنى الكلمة .

ماذا نريد للمرأة :

الكلام فى حقوق المرأة حديث جديد فى المدنية ، واذا كانت المرأة العربية فى ظل الاسلام قد حصلت منذ خمسة عشر قرنا تقريبا على كثير من الحقوق التى لم تنلها المرأة الغربية الا فى أوائل القرن العشرين ، فان المرأة العربية اليوم لم تستفد من أحكام الاسلام شيئا ، وواقعها واقع لا تحسد عليه أبدا لأن أولى الأمر وكثيرا ممن ينتسبون الى الدين الاسلامى ظنوا أن الاسلام ظلم المرأة وسلبها حقوقها ، مع العلم بأن الاسلام أعطاها من الحقوق ، وفرض على الرجل من الواجبات ، ما يجعله هو فى موقف لا

يحسد عليه ، وما جعل بعض الظرفاء يطالبون للرجل بمساواته مع المرأة لما لها عليه من امتيازات .

ميراث المرأة :

فى القرن السابع للميلاد تندى قطر فى صحراء العقائد ، وظهرت الطمأنينة والسعادة فى ضوضاء العرب ، واطلت الشريعة الاسلامية كالطل على المرأة المسكينة وتعهدتها بالرعاية والعناية ، ولم تبخل عليها بالعناية ، وجعلت لكل من الذكر والأنثى نصيبا معلوما من ارث المتوفى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب) . هذا هو الحق المعلوم الذى تفرضه البنوة على الأبوة ونعمة الخير القائمة الأثر بين المولود والوالد ، والذكرى لا تمـوت بين الولدان فى مراحهم وقصـورهم ، والآباء فى رموسهم وقبورهم ، وهذا النصيب القائم لا يتواضع أو ينكمش ان تواضع الوارث وصغر ، ولا يتضخم ويطغى ان عظم الوارث أو كبر ، لا لشىء الا لأنه حق ، وسيان فى ذلك حق الأمير والحقير ، وحق الكبير والصـغير وحق الوزير والخفير ، وما ذلك الا طاعة للقسمة الربانية (فريضة من الله وكان الله عليما حكيما) .

أقام الاسلام للارث قواعد لا تحيد وما على الناقد البصـير والباحث العدل ، الا ان يلحظ المزايا العظيمة للميراث فى الاسلام ، والتى تنطوى عليها مصالح العباد أو يتم بها نظام الحياة .

ألم تهاجم الاشتراكية على اختلاف أقسامها وكثرة وجوهها — وابرزها اشتراكية سان سيمون — النظام الارثى الذى أثبته الاسلام ؟ ألم يجحد القانون اليونانى والرومانى حق القرابة وجاء الاسلام فأثبته ؟ ثم ألم يكن نظامه المتبع فى التوزيع والتركة حسب السهام ، ووضع الأنصبة ، فتحا فى عالم التنظيم والابداع تفـرد به دون سـواه من الشرائع والقوانين تلكم الشرائع التى كانت تفرق .. بين الأرشد وغير الأرشد فى ميراث الذكور ،

وجاء الاسلام فسوى وعدل ، والتى كانت تميز بين البـــكر وغيره وجاء الاسلام فقوم واقسط ؟ .

وجها لوجه مع المتهجمين :

وان الاسلام لا يساوى المرأة بالرجل فقط بل يرفعها ويدنيه ، ويسعدها ويشقيه ، وما من أمة تحت السماء انصفت المرأة وناصرت المرأة ، وقررت حقوق المرأة ، وحررت المرأة ، مثل الأمة العربية .

وفى ذلك يقول فون كرومر (ان العرب كانوا مفطورين على احترام النساء ، ومنهم تعلم الغربيون احترام نسائهم) .

واذا كانت ارادة الله قضت علينا اليوم ان نصبح فى مؤخرة الشعوب ، بعد ما كنا فى مقدمتها ، نتيجة جمودنا وتخاذلنا ، فانه يجب علينا ان نعمل فى ثنايا هذا الظلام الدامس الى نشر ما فطرنا عليه ، من احترام النساء . وان نؤمن بأن التاريخ يجب ان يعيد سيرته ، وان الديموقراطية يجب ان تسود . وان المرأة العربية يجب ان تتحرر ، وان المبادىء الانســانية يجب ان تعم وتنتشر (١) .

---

(١) راجــع مؤلفات الاستاذ محمد جميل بيهم حول المرأة .

لبنان .. إخاء بين المسيحية والإسلام

* يعتقد الاستعمار ان باستطاعته البقاء فى لبنان ما دام فيه داء الطائفية ، ولذلك فهو يستخدمها فى كل مناسبة للسيطرة .

* ان الدول الكبرى كانت تتقاسم الطوائف اللبنانية ، فهذه كانت تنعم بعطف فرنسا ، وتلك تساعدها بريطانيا ، والثالثة تنسجم مصالحها مع مصالح امريكا .

* حان الوقت لكى يعلم جميع المعنيين بأمر الطائفية ، ان المسيحيين ليسوا غرباء عن هذه الديار ، وان المسلمين ليسوا دخلاء عليها ، وان « استحالة الحياة » بين هاتين الطائفتين فى وطن واحد . اصبحت نوعا من « الخرافة » بفضل الوعى العربى .

السلم والسلام وكل ما يتفرع منهما ، ويحمل الحياة بحقائقهما وينسب اليهما : من المبادىء الاساسية التى قامت عليها رسالات السماء عامة ، وحملت لواءها المسيحية والاسلام بصفة خاصة .

فاما المسيحية فرسالتها الحب وطريقها الاخاء وغايتها السلام ، وشعارها المصوغ من هذه المثل الرفيعة : « المجد لله فى الاعالى وبالناس المسرة وعلى الارض السلام » .

واما الاسلام فهو مرادف « السلام » وقرينه فى الاشتقاق من مادة « سلم » وضريبة فى امتناع الكون بالسلامة فى الابدان والأنفس والاموال .

من اجل ذلك كانت تحية ابناء الاسلام عند اللقاء « السلام » ووداعهم عند الفراق « السلام » واسم الله عندهم : السـلام ، واقدس لياليهم ليلة القدر التى انزل فيها القرآن تميزت بالسلام « سلام هى حتى مطلع الفجر » .

فاذا كان هذا شأن الديانتين اللتين تنتسب اليهما الكثرة الغالبة من ابناء لبنان ، فكيف يعتبر التعايش السلمى بين اتباع ديانتى السلام قضية تحتاج الى اثبات ؟ أو مشكلة تتطلب العلاج ، او غاية يسعى اليها الاحـرار والمنصفون من قادة الوعى فى لبنان ؟

ان التعايش السلمى بيننا هو نتيجة حتمية لكوننا مسيحيين ومسلمين ، وهو الثمرة الطبيعية لانتسابنا الى المسيح — وهو رمز الحب والتسامح بين الناس سواء منهم المحبون والكارهون — والى محمد الذى يقول الـكتاب الذى انزل عليه « لا نفرق بين أحـد منهم ونحن له مسلمون » والتعايش السلمى بديهة من البسـاطة بحيث لا تتطلب ارادة بحث ولا تقليب رأى ، للوصول الى اتفاق عليها أو الالتقاء حولها ، وهو كذلك حقيقة واقعة تشكل الطبيعة الصحيحة التلقائية لحياتنا الاجتماعية ، كما يشكل الجـريان طبيعة الماء ، والهبوب طبيعة الهواء ، والتنفس طبيعة الحياة فى الانسان .

التعايش تجسيد لحقيقة قديمة :

ومع ان التعايش السلمى تعبير حديث ، فهو تجسيد لحـقيقة قديمة اراد المستعمر ان يطمسها ويشوهها ، ليتاح له أن يتسلط وان يمد سيطرته ويوطد نفوذه .

فمنذ الـرومان كانت القاعـدة الاسـتعمارية « فرق تسـد » هى « التكتيك » الناجح الذى يلجأ اليه المستعمرون لتحقيق النزاع بين طبقات الأمة ومختلف فئاتها ، يضربون بعضهم ببعض ، ويحرضون هذه على تلك ، ويثيرون المخاوف فى صدر الواحـدة تجاه الاخرى ليخلو لهم الجـو ،

وليأمنوا اتحاد هذه الفئات جميعا ووقوفها فى وجــه الدخــيل واطماعه ، والطغيان الاجنبى وشروره .

وكلنا يعلم ان كثيرا من بلاد الله كانت ميدانا تطبيقيا لهذه القاعدة ، فالهند مثلا لم تعرف الاستقرار فى عهودها الذليلة ، لان الاستعمار حــرم عليها الاستقرار ، ولأن وســيلته الى غايته ، كانت فى خلق نوع عنيف من الصراع المفتعــل بين فئات الوطن الواحد بل على التحــديد بين الهندوس والمسلمين .

الهندوسى يقدس البقرة ، والمسلم يعتبرها من الحيــوانات التى خلقها الله لخدمة الانسان ، ورغم ذلك فان نوعا من الاتفاق الضــمنى والتعايش السلمى كان قائما بين التفكيرين ، فلا الهندوس يفرضون على المســلمين عبادة البقرة ، ولا المسلمون يطلبون الى الهندوس ان يتنازلوا عن عقيدتهم ، باعتبار ان العقائد الدينية ليست الا جزءا من حرية الفرد الشخصية وحرية تفكيره .

وعندما كانت الاصطدامات تقع بين المســلمين والهندوســيين ، كان المستعمر حابك المؤامرات هو الذى يشعل نار الفتنة ويحرك شيطانها ، وهو الذى يفتعل السبب للالتحام ، ليصرف المواطنين عن هدفهم الاصيل الذى يسعى اليه القادة المخلصون .. الا وهو النضال الدائم المستمر لطرد الاجنبى وانتزاع جذور الاستعمار من ارضهم .

وكان هذا الدخيل ينبرى حين تقع الواقعة ليذيع على الدنيا أنباء الفتنة مكبرة مضخمة ، وليظهر للعالم ان الهند غير جديرة بالاستقلال ، وان وجوده فيها وبقاءه على ارضها ضرورة حيوية لاقامة الســلم بين فئاتها ، وانه لولا تدخله لطغت فئة على اخرى وافنتها فى حرب اهلية ضارية لا ترحم .

وكان بعض السذج يصدقون هذا المنطق ، ولكن الذين لم يكونوا يصدقونه هم الواعون المخلصون الذين آلوا على انفسهم ان يفضحوا الاستعمار ، وان يدحروه وان يفسدوا عليه خططه .

وبالفعل فلقد استمر نضالهم وامتد الى ان وجد الاستعمار نفسه عاريا من كل هيبة ، مجردا من كل نفوذ ، والى ان تحقق ان اساليبه فى تفريق الصفوف وتأريث الاحقاد ، لا يمكن ان تحمى مصالحه ، فاضطر الى ان يغادر الهند وفى نفسه الحسرة والكمد ، وعلى مفرقه عار الزمن وسبة التاريخ .

تجربة الاستعمار فى البلاد العربية :

لم تنج بلادنا العربية من ان تكون حقلا للتجزئة ، فالاستعمار اياه حاول خلال فترة طويلة من الزمن ان يزرع الفتنة فى مصر ، كما حاول ان يحمل بذورها الشريرة الى سوريا ، ولكنه كان ينتهى دائما ذليلا مدحورا ، تفضحه عيون الوطنية الساهرة وتكنس آثاره طاقات الوعى التى تنفجر فى دنيا العرب ، كلما طاب لمستعمر ان يتحدى ارادة شعبنا العربى ويتسلل الى صفوفه .

الطائفية سلاح الاستعمار :

واما لبنان فقد كان له النصيب الاوفى من دسائس المستعمر وفتنته ، وكانت الطائفية هى السلاح الذى يمتشقه فى كل مناسبة ، بسبب تعدد ديانات سكان هذا البلد واختلاف عقائده ، وكان الطمع بلبنان يستند الى أسباب كثيرة .. اهمها ان هذه البقعة من الارض هى المنفذ الطبيعى لبقية البلاد العربية ، فالسيطرة على لبنان تسهل السيطرة على سورية والاردن والعراق ، ومن هذه البلاد كلها يمكن السيطرة على مصر وقناة السويس .

كما ان الاستعمار بسبب تعدد الطوائف اللبنانية ، كان وما يزال يعتقد ان باستطاعته ان يلعب ورقة الطائفية فى أى وقت شاء ، ليحقق اطماعه فى الاستيلاء على هذه المنطقة الاستراتيجية .

كما ان الاستعمار بسبب تعدد الطوائف اللبنانية ، كان وما يزال يعتقد أن باستطاعته أن يلعب ورقة الطائفية فى أى وقت شاء ، ليحقق أطماعه فى الاستيلاء على هذه المنطقة الاستراتيجية .

ومن هنا نشأت فكرة الحياد الايجابى .. الفكرة التى تحقق للعرب كسبين عظيمين : الاول استقلال بلاد هذه المنطقة وسيادة شعوبها ، وباستقلالها وعدم سيطرة احد عليها يتحقق الكسب الثانى والأهم الا وهو السلام العالمى . وهكذا نجد ان دور العرب فى اقرار السلام العالمى وهو دور رئيسى ، وكلما قويت جبهة الحياد الايجابى فى العالم كلما ابتعد شبح الحرب الذرية التى تهدد الانسانية بالدمار والفناء .

الدول الكبرى تتقاسم الطوائف :

ومن هنا ايضا يتبين للمدقق اهمية الدور الذى يود الاستعمار ان يلعبه حين يحرك الطائفية ، ويستخدمها كسلاح فعال للسيطرة على لبنان . فهو يطلق الفتنة الطائفية حينا بعد حين ، يطلقها بين المسيحيين والدروز وبين المسلمين والمسيحيين ،حتى ليمكن القول ان الدول الكبرى كانت تتقسم الطوائف اللبنانية ، ليجعل الاستعمار ـــ وهو قاسمها المشترك الاعلى ـــ من لبنان مناطق لنفوذه .

فهذه الطائفة مثلا ، تنعم بعطف فرنسا وتلك تساعدها بريطانيا وثالثة تنسجم مصالحها مع مصالح اميركا ، وهكذا دواليك حتى اصبحنا فى وضع دقيق جدا ، فلا يكاد ينشب بين شخصين من طائفتين خلاف بسيط حتى يتعالى الصراخ من كل جانب وتكال التهم جزافا للدولة والكيان بأسره ،

وتعلو نغمة مقيتة تسبح بحمد الاستعمار وضرورة رجوعه للتهذيب والحماية ونشر الحضارة .

وهذا ما حدث فعلا فى عام ١٨٤١ اذ تشاجر درزى من بعقلين مع مواطن من دير القمر ، فاذا ببريطانيا تهب لنصرة الدروز ، واذا بفرنسا تتجند لحماية المسيحيين واذا بالعثمانيين يتجاذبون الفريقين حفظا لكرامتهم كحاكمين شرعيين للبلاد وصونا لنفوذهم الذى تهدده بريطانيا وفرنسا بتدخلهما السافر .

وليس جديدا بأن نقول بأن فتنة ١٨٦٠ الدامية التى وصمت حقبة من تاريخنا بوصمة مفتعلة ، ليس جديدا ان نقول بأن هذه الفتنة كانت من نتائج الدس الاجنبى الذى كان يفتعل الحوادث ، ليتدخل او ليحمى بعضنا من البعض الآخر على حد زعمه .

الهررة الثلاث :

ومن سوء حظنا ان الطامع بنا ، ببلادنا الخيرة ، بثرواتنا ، كان اكثر من واحد ، فاذا بنا كقطعة لحم طرية يتنازعها ثلاث هررة : الفرنسيون والانكليز والاتراك ، كل منهم يطمح ان يسيطر على مواردنا ، وان يستثمر خيرات بلادنا ، وهكذا فما كاد ينشب خلاف عادى فى سنة ١٨٦٠ حتى هبوا جميعا يتنازعون على الغنيمة ويقتتلون فى سبيل التفرد بها . وليس ادل على ذلك من سلوك العثمانيين فى بلادنا . فالاتراك كمسلمين دخلوا البلاد كما هو معروف لحماية فئة معينة — ان لم يكن ذلك ظاهريا فعلى الاقل بصورة ضمنية — ولكنهم ما كادوا يمسكون بزمام الامور حتى اخذوا يحاربون الوعى وينشرون الجهالة ويسومون جميع الطوائف اشد انواع العذاب والتنكيل ، بما فى ذلك المسلمين . ومن لا يصدق فليسأل مشانق عاليه ، ومشانق بيروت ، وليستعرض اسماء الشهداء الذين علقهم السفاح التركى الغاشم ، وحينئذ تتجلى لعينيه حقيقة صارخة لا يمكن نكرانها ابدا ..

وهى ان عناصر هذا البلد وفئاته على اختلاف عقائدهم لا تنساق لمطامع الاجنبى ، ولا تؤخذ بألاعيبه وأكاذيبه . ان مشانق جمال باشا السفاح لم تقف ولم تعف عن عنق المسلم لأنه مسلم ولم تشد عنق المسيحى لأنه مسيحى . بل اطبقت على اعناق النخبة من شباب الامة الذين تجرأوا وطالبوا بالحرية لبلادهم وبالكرامة لوطنهم .

داء الطائفية :

كما ان الدلالة التى تحملها تلك الكارثة دلالة عميقة المعنى تلقم ، كل مضلل حجرا وتبرهن بأن الطائفية لم تكن يوما ما حاجزا بين نضال المسلم ونضال اخيه المسيحى اى ان نضال المواطن لم يتجزأ يوما ولم يتلون بلون الدين وانما كان نضالا مشتركا ضد التحكم والتعسف والظلم والعدوان .

فداء الطائفية اذا .. هذا المرض الخبيث الذى استشرى فى جسم وطننا الحبيب واعيى علاجه نطس الطب وعلماء الاجتماع ، هو دخيل علينا ومستورد من الخارج ، ان التدين فى بلادنا قديم ولكن الطائفية مستحدثة ، اننا فى هذا الشرق حواريو الانبياء واتباع الاولياء ولكننا لم ننغمس فى الحقد الدينى الذى يدعى « الطائفية » الا حينما جرتنا اليه اساليب الاستعمار واحابيل المستعمرين .

لا طائفية فى الدين ولا دين مع الطائفية . هذا هو المبدأ الذى يجب ان يعتنقه المسلمون والمسيحيون فى لبنان ، لان الدين رحمة للعالمين وهدى للناس اجمعين وهو شمس الله التى تشرق على الجميع ، وغيث الله الذى يحيى موات الخير فى قلوب الجميع ، وشتان بين الدين وبين الطائفية .

لقد نظر القرآن الكريم الى جميع الاديان السماوية نظرة تمجيد وتكريم وخص المسيحية بالذات حينما قال : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا

الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

ولو اننا رجعنا الى صفحات التاريخ ، وقلبنا سير تراجم اعلام المسيحية والاسلام في العصور القديمة والحديثة لألفينا ميزة الحب والاخلاص والتسامح جلية واضحة بينهم في اقوالهم وافعالهم وسائر شئون حياتهم .

فهذا الخليفة المتوكل على الله العباسي ، حينما اراد ان يستوثق من أمانة الطبيب الكبير حنين بن اسحاق ويختبر درجة اخلاصه قبل ان يقربه منه لينتفع بعلمه وخبرته ، راوده ان يضع له دواء مسموما ليغتال به احد اعدائه السياسيين وقال له : ياحنين ، اني اريد ان اقتل عدوي هذا قتلا فاحلا من غير ان يدري بذلك احد ، فأتني بما تدبره له .

ولم يكن الطبيب يعلم ان هذه تجربة له ليستوثق من امانته واستقامته مخافة ان تلعب بعقل الطبيب رشوة اعداء الخليفة فيقتله غيلة ، ومع ذلك فقد اجابه الطبيب قائلا :

ايها الخليفة ، انني تعلمت من العلم ما طاب ونفع ، وما عدا ذلك لا علم لي منه . فخيره الخليفة بين امرين : هدية سنية ان لبى طلبه ، وان أبى فالسجن والموت ، فلم ينثن حنين عن عزمه ولبث في السجن حولا كاملا لم ينقطع خلاله عن التأليف والبحث .

ولما رأى الخليفة ان التهديد لا يؤثر في نفس ذلك الطبيب دعاه وقال له : يا حنين هدىء من روعك واطمئن الى نفسك ، فقد صرت على يقين من حسن طويتك وجعلتك طبيبي الخاص ، شريطة ان تخبرني عن سبب امتناعك عن تنفيذ ما اردت .

فقال الطبيب : انما كان ذلك لأمرين : احدهما ديني فهو يمنعني عن كل ضرر ألحقه بأحد ولو كان عدوي ، وثانيهما صناعتي ، فلها على من الواجب ما يرغمني على فعل الخير بالناس .

وهذا الخليفة المعتضد العباسي يحاول ان يختبر مدى ايمان ابى قرة الصائبى وهل يبيع دينه بدنياه ، فعرض عليه أن يطعم مرة فولا ويأخذ الفى دينار ، ومن المعروف ان الصابئة تحرم أكل الفول فرفض الصابئى ذلك وقال له : لا والله يا امير المؤمنين ، لا اطعمه ابدا ولو وزنت لى ملء هذه الحجرة ذهبا ، فكان بموقفه هذا محلا لرعاية الخليفة المسلم وحبه واحترامه .

وهذا المنصور بن ابى عامر الملك الاندلسى ذو الايمان الصادق واليقين العظيم ، ما كاد يزور مدينة سانتياغا البورتغالية ، ويزور ضريح يعقوب تلميذ المسيح عليه السلام حتى لاحظ بجوار الضريح راهبا منقطعا لخدمته والعناية بأمره ، فسر الخليفة المسلم كثيرا واعجبه من الراهب المسيحى ما رآه فيه من معالم الايمان والاخلاص ، فأغدق عليه عطاياه وبالغ فى اكرامه .

ثم هذا الخليفة العباسى المعتصم يبكى ويطيل البكاء على طبيعة المسيحى المخلص سلمويه ، لما عرف عنه من الصدق فى الدين والاخلاص فى العقيدة والاستقامة فى العمل ، ودفعه وفاؤه له وحبه اياه الى استشارته عن الشخص الذى يجدر ان يسند اليه عمله ، فقال له سلمويه : عليك بحنين بن ماسويه . ولما قضى سلمويه نحبه امر المعتصم ألا يدفن حتى يصلى عليه فى قصره صلاة الجنازة حسب الطقوس المسيحية ، ثم تقبل المعتصم التعازى واحجم عن الطعام اياما حدادا على صديقه وطبيبه سلمويه المسيحى .

أما الرحالة ابن جبير ، فانه يذكر لنا فى رحلته ان غليوم الثانى ملك صقلية كان معجبا بايمان العلماء المسلمين وكبير اخلاصهم ، فاتخذهم مرافقين له يمهدون امامه طريق المعرفة ، ويدرسونه آداب اللغة العربية ، وكان يأتمنهم على كل خواصه حتى على طعامه وشرابه واسراره وقد نقش على خاتمه « الحمد لله وحده » .

ثم لم يكد ينتهي عهد الاتراك الاسود ، عهد الجوع والعرى والتشرد، عهد السفاح جمال ، حتى اطل علينا شبح استعمار جديد اخذ يتمركز فى ربوعنا .

أرض العروبة مهبط الرسالتين :

انبرى المواطنون الاحرار ليقولوا للاستعمار ان افتراقنا فى الدين الى مسلمين ومسيحيين ، لا يمكن ان ينال من وحدة البلد العربى الذى نشترك فى شرف الانتساب اليه ، وتتقاسم خيره وامجاده فى اخوة صادقة ووحدة وطنية شاملة . ذلك بأن أرض العروبة مهبط الرسالتين المسيحية والاسلامية هى وطننا جميعا ، نلتقى فى ظله وتتعاون على اسعاده ، ونسير جنبا الى جنب فى الدفاع عن مقدراته ، وتتعانق أشلاؤنا اذا جد الجد فى ساحة الفداء له .

وما كان اختلاف الدين بين ابناء البلد الواحد عامل هدم او توهين فى كيانهم القومى ، متى استوفى مقوماته من اتحاد اللغة والجنس والأرض والمصالح والآلام والآمال .

ولقد قام الوطن العربى فى ظل بطل العرب الاكبر محمد بن عبد الله صلوات الله عليه على اساس توافر هذه المقومات التى لم ينقص من اهميتها واثرها فى تكوين الوحدة الوطنية أن يكون لأبنائه يومئذ أكثر من دين .

نعم قامت دولة اسلامية — وان شئت قلت دولة العرب — الأولى فى المدينة غب الهجرة ، فاذا دستورها المثالى كما تقرره صحيفة الموادعة بين المسلمين واليهود ، يبسط جناح الامن والسلام والاخاء على اهل المدن جميعا بدرجة واحدة مساواة تامة فى الحقوق والواجبات لا يلمح فيها ظل للتفريق بين المسلم صاحب الاكثرية والرياسة ، وبين اليهودى الذى يمثل الاقلية التابعة .

وبهذا نقدم الدليل الحاسم على ان الدولة التى تقوم على التعصب وتبنى سياستها على الاهواء والطائفية ، تكون قد ندت عن الناموس الطبيعى فى قيام الدول وخربت الاساس الصالح الذى يحفظ عليها عنصر البقاء والاستمرار .

ومن هذه المغالطات التى تخلق نشوء الامم كانت دولة اسرائيل كيانا مزيفا لا يمكن ان يعيش لانه قام على اساس دينى عنصرى ، على شتات من امم مختلفة لا تجمع بينها وحدة تاريخ ولا وحدة مصير .

وقال الوطنيون الشرفاء للاستعمار الفرنسى : ليس المسيحيون غرباء عن هذه الديار ، وليس المسلمون دخلاء على هذه البلاد ، واكتشف الاستعمار انه هو وحده الدخيل وانه هو وحده العلقة التى تمتص دماء الشعوب والحشرة النهمة التى تأكل خيرات الآخرين ، وكان علينا نحن ان ندفع ضريبة الدم من جديد .

وحصدنا رصاص المستعمر الفرنسى دون ان يفرق بين مسلم ومسيحى، واختلط دماء شهدائنا فى طرابلس وصيدا وفى بيروت ومختلف المدن اللبنانية ، دماء مسيحية ومسلمة ، امتزجت لتصنع للبنان تاريخا من العزة والكرامة والمجد ، تاريخا بريئا من العنعنات الطائفية .. من هذا الطاعون الوافد الذى لا يمكن ان يعيش فى ارضنا ابدا . وهكذا جمعنا النضال ضد المستعمر الفرنسى مرة ثانية بعد ما جمعتنا مشانق جمال باشا السفاح وكانت ثورة ١٩٤٣ التى سرنا فى صفوفها مسيحيين ومسلمين ضد الاستعمار الفرنسى المسيحى مكملة لثورتنا ١٩١٦ ضد الاستعمار العثمانى المسلم . وحمل الفرنسيون تاريخهم الاسود ورحلوا ، فهل انتهت فتن الاستعمار الطائفية فى بلادنا ؟

لقد غادرتنا جيوش الاحتلال وانتهى بخروجها عهـد الاستعباد . اما المؤامرات فلم تنته ولكن الشيء الأكيد الراهن هو ان الطائفية لم تعد ابدا لسوء حظ المستعمرين السلاح الظافر او الورقة الرابحة .

محاولة أخيرة فاشـلة :

لقد حاول المستعمر خلال فترة ما بعد الاستقلال ان يوقظ نار الفتنة اكثر من مرة ، ظنا منه ان اشعال نار حـرب اهلية فى لبنان بين المسـيحيين والمسلمين هو خير وسيلة لتهديم الكيان وتقويض اركانه ، وخير حافز لفئة معينة للاستنجاد بفرنسا وطلب حمايتها . وانه لمن المؤسف حقا ان يكون فى صفوفنا بعض التجار ، تجار الاديان والوطنية الذين كان همهم الأوحد ان يحققوا للاستعمار اغراضه وان يصبوا الزيت على الفتيل ليشتعل عند اول احتكاك .

هؤلاء التجار التزموا لأسيادهم اضرام النار ، وكانوا حريصين جدا ان يقوموا بالتزاماتهم ، ومن اجل ذلك دأبوا على حبك الفتن فى الظلام ، وراحوا فى كل مناسبة يشنون حربا استفزازية كلامية تعلن ابواقها ما يلقن المستعمر لهذه الابواق من اضاليل وتضليل ، ولكن الشعب المتراص المتكاتف عرف كيف يقابلهم فى كل مرة بالسخرية والازدراء والاحتقار .

وقد اخذنا نلاحظ أن مروجى هذه البضاعة بدأوا يختفون عن المسرح السياسى شيئا فشيئا ، لانهم باتوا يخجلون من وعى الشعب ، من النـور الفاضح المسلط على مخازيهم . ولقـد بدأت قضية اسـتحالة التعايش بين المسيحيين والمسلمين فى وطن واحد ، لقد بدأت هذه القضـية تدخل فى تاريخ الخرافة بعد ان حطم وعى الشعب ارادة الفريقين المعنيين هذا الادعاء المضلل .

ولم لا نقولها بصراحة ان التعايش السلمى بين المسيحية والاسلام ، هذا التعايش القائم منذ نشوء الاسلام ، اصبح فى لبنان ضرورة كيانية ملحة لبقاء هذا البلد واستمراره . وهل يعيش الطائر بجناح واحد وهل يحيا الانسان برئة واحدة ؟

فى كل يوم يقف اكثر من رئيس دينى مسيحى ليعلن للعالم حقيقة هذا التعايش وفى كل يوم يقف اكثر من رئيس دينى مسلم ليؤكد للملأ ان هذا التعايش لا يمكن ان يؤثر فيه دس ولا تضليل ، ولكن الاستعمار لا يكل ولا يمل ، انه يؤمن باخلاص فئة ضئيلة من المأجورين ، ويعتقد ان باستطاعة هذه الفئة ان تحقق له اغراضه وان توصله الى غاياته .

ولكن الاستعمار اصبح من البلاهة والخرف ، وقصور التفكير وبلادة الذهن لدرجة تحمل فعلا على الضحك والسخرية ، لانه اغفل عامل الوعى ونسى ان كل لبنانى اصبح يعرف تمام المعرفة ماذا تعنى دعايات الاجنبى وانه امسى يعرف تماما ان تحريض فئة على فئة لا يستفيد منه الا المحرض .

لقد صار بامكان اللبنانى ان يستخدم معرفته للتوصل الى حقيقة الامور وجوهرها ، صار بامكانه ان يميز الغث من السمين والحق من الباطل .

لقد تهدم جدار الرعب القائم بينه وبين جيرانه العرب ، واكتشف اللبنانى ان المسلم فى الجزيرة العربية مثلا او فى مصر او فى العراق او فى سورية أو فى الأردن ليس الا اخا له ، يفتح له صدره ، ويقف الى جانبه لبشد أزره عندما تدعو الحاجة ، وأن يفتح له فوق ذلك صدر بلاده يسرح فيها ويمرح ، ويشارك فى خيراتها ويعمل على ازدهارها ويسهم فى تطويرها وانهاضها . ولم يعد يرى فى جاره المسلم .. جاره فى بلده ، قبضة مهددة تهم بالانقضاض عليه فى أية لحظة لتؤدى به ولتقضى عليه وعلى كيانه الوطنى .

لا حاجة لاثبات الاخوة :

اذا حاولت ان اعدد المواقف التاريخية والأزمات التى مرت بهذا البلد واثبتت متانة الوحدة بين أبنائه ، وروح الأخوة بين طوائفه والتعاون المثمر بين عقائده اذا حاولت ذلك ، فاننى لا استطيع احصاء تلك المواقف ؛ واذا اردت أن اعدد المحاولات اليائسة الفاشلة التى لجأ اليها الأجنبى وما يزال ليجعل من الطائفية مرتكزا له فى بلادنا ، واذا اردت أن اعددها اعــوزتنى المجلدات ، لأن للأستعمار فى بلادنا كل يوم محاولة ؛ واعتقد انه قد آن للأستعمار ان يفهم ان المسيحية والاسلام كدياتين سماويتين ليس بينهما أى خلاف أو صراع ، فالركائز الأساسية التى تقوم عليها احداهما هى الركائز الأساسية التى تقوم عليها الأخرى ، ان الجوهر واحد والمثل واحد والغاية واحــدة .

وكما فوتت وحدتنا بالماضى على المستعمر اغراضه واطماعه ؛ فان هذه الوحدة بالذات هى التى تفوت عليها اليوم ما يؤمل .

وحـــدة الوطن :

لقد آمنا جميعا بوحدة الوطن ضد الخطر الأجنبى ؛ وضـــد الخطر الذى يجثم على صدرنا الجنوبيـــة .. ضـــد اسرائيل التى تترقب الفرص السانحة لتقضى على هذا البلد الآمن وعلى غيره من البلدان العربية ، فتحقق احلامها فى ملك يشمل النيل والفرات ، وتحقق أغراض المستعمر كقاعـــدة استعمارية فى قلب منطقة الشرق الأوسط قاعدة ينطلق منها الى دول المنطقة بأسرها ليتحكم فى مصائر شعوبها ، ويمتص خيراتها ويستغل الطاقات الخيرة الكامنة فى ارضها .

لقد آمنا بوحدة هذا الوطن كجزء من شعب عربى كبير ، تآلف فيه المسيحيون والمسلمون ، وربطتهم عرى أخوة عريقة عبر التاريخ ، وصهرتهم

آلام واحدة ، وجمعهم ماض وتاريخ وحياة مشتركة . ويجمعهم مستقبل واحد وآمال واحدة ومصير واحد .

آمنا بوحدة هذا الوطن ، بتآلف طوائفه ونحله من آجل غد زاهر آمن لأبنائنا جميعا ومستقبل مجيد لأجيالنا الطالعة .

ان التعايش السلمى بين المسيحيين والمسلمين فى لبنان فضلا عن كونه واقعا ملموسا منذ اقدم الأجيال . وحقيقة لا ينكرها الا مكابر ، فانه ضرورة كائنة ، ضرورة من اجل المثل العليا التى نؤمن بها جميعا ، من اجل الأهداف المشتركة التى نؤمن بها جميعا وهى الطاقة التى تمنح هذا البلد قوة الاستمرار ، وهى الرئة التى يتنفس بها ويعيش . فاذا لم تكن وحدة اللبنانيين من أجل جميع هذه المثل فلتكن على الأقل من أجل بقاء لبنان واستمراره .

هذا هو منطق الواقع والتاريخ ، فى ضرورة التعايش السلمى بين المسلمين والنصارى فى هذا البلد الحبيب . فهل آن لنا ان نسمع كلمة الدين الخالص ، كلمة التشريعات المذهبية الصرف ، كلمة الاسلام والمسيحية فى اثبات هذا التعايش ، وتيسير اسبابه وازالة كل العقبات ، التى يتوهم المغرضون والجاهلون ، انها تقوم فى طريقه .

هذا صوت المسيحية الحبيب ، يطرق اسماع الدنيا كلها بترانيم المحبة ويجعل شعار اتباعه الرفق والرأفة ، وتثور آلام نبيه العظيم عليه السلام ، من اجل حمامة واحدة ، ويبسط كف الصفح للمسىء فضلا عن المحسن ، حين يقول : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » .

ويشغل كل انسان بعيبه حتى لا يأخذه الغرور فيتطاول على غيره ولو كان جديرا بأن يتطاول عليه !

ثم ان هناك موقفا لروح الله المسيح عليه السلام حين اراد بعض اصحابه ان يرجم امرأة زانية فقال لهم « من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها فكف الناس ايديهم عنها .

ان دينا هذا شأنه مع الخصوم وجيران السوء لا يمكن ان يرضى لأبنائه ان تضطرب معيشتهم مع اخوانهم واحبابهم المسلمين .

اما صوت الاسلام الخالص فهو حقيقة التعايش السلمى بذاتها . وهو الضمانات الكفيلة بامتداد طريقة رحبة فسيحة معبدة ، لا تعرف العقبات ولا تعرف المشكلة حتى تقدم لها العلاج فالأسلام يقرر ألا اكراه فى الدين . والرسول العظيم يكرم اضيافه من نصارى الحبشة حتى يقوم بنفسه على خدمتهم وتقديم الطعام اليهم ، وعمر بن الخطاب تحضره الصلاة أمام كنيسة القيامة فيخرج للصلاة بعيدا عنها رعاية لشعور النصارى وخشية أن يغلبهم عليها المسلمون وهم فى أوج الظفر والانتصار ، والقرآن الكريم يضع المعابد على اختلاف اديانها فى مستوى واحد من الاحترام ; ويبلغ من مجاملته للأديان السماوية أن يقدم معابدها على معابده فى نسق الآية الكريمة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » .

الا يحق لنا ان تقول ان الاسلام يتعصب لعقيدة المسيحية اكثر مما يتعصب لحماية اتباعه المسلمين ؟ فهل لمكابر بعد ذلك كله ان يزعم ان اختلاف الدينين مانع من التعايش السلمى بين الطائفتين ؟ .. « كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا » .

واخيرا فلتحن الرؤوس ولتخشع القلوب لصوت الوحدة الدينية والأخوة الاعتقادية بين الأديان السماوية جميعا تنطلق به الآية الكريمة :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

افتحوا باب الاجتهاد

* محاولة متواضعة من اجل تطور فكرى مرتقب تقدمها الى جميع العاملين فى حقل الدعوة ، الذين نذروا انفسهم من اجل اعلاء كلمة الله .

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حمل اتباعه هدى الرسالة ، وانطلقوا فى أرض الله ينشرون عقيدتهم ويدعون لها ، ويجابهون بها حضارات الأمم القديمة ، وهى حضارات عريقة ثابتة الأصول سامقة الفروع ، وكان لابد لهم من ان يواجهوا مشاكل جديدة لم يكونوا ليعرفونها فى اطار مجتمعهم الصحراوى ، وان كان كتاب ربهم وسنة نبيهم قد احاطا بالكثير من القضايا الاجتماعية والتشريعية والحياتية ، التى قد يتعرض لها المجتمع الاسلامى . وكان لابد لهم ، ازاء هذه المشاكل من ان يلجأوا الى كتاب الله ، فان وجدوا فيه الحكم فيما يريدون ، طبقوا نص القرآن وتمسكوا به ، وان لم يجدوه ، اتجهوا الى سنة الرسول القولية والفعلية ، يلتمسون فيها الحل ، فان لم يجدوه اجتهدوا بآرائهم وحكموا افهامهم ، فيما يرونه اشبه بالمعروف من مقاصد الشريعة وقواعدها فى اقامة العدل بين الناس وصيانة المجتمع . ومثلهم فى ذلك مثل القاضى فى العصور الحديثة ، يتمسك بالنص حين يجده ، فان لم يجد النص ، استلهم وجدانه ومثل العدالة وروح النص .

اجتهادات عمر :

وقد تميز صدر الاسلام باجتهادات جريئة لعمر بن الخطاب ، تجلت فيها عبقرية الخليفة العظيم ، وطاقته التشريعية الهائلة ، وثبتت بها مرونة التشريع الاسلامى وقابليته للتطور ، ولأن يكون مرتكزا لكل تصعيدة حضارية فى أى زمان ومكان .

ومن اجتهادات ابن الخطاب انه خالف ظاهر النص القرآنى واستلهم روحه . ففى عام الرمادة ، وهو عام قحط ومجاعة ، ابى ان يطبق حد السرقة على السارقين مكتفيا بتعزيزهم . وسبب ذلك ، انه ادرك عظمة الدين وسماحة القرآن ، وايقن ان الدافع الذى دفع هؤلاء الى السرقة ، انما هو الضرورة . والضرورات كما نعلم نحن اليوم ، تبيح المحظورات ، خصوصا حين يكون المرء فى موقف تهدد فيه حياته وحياة من يحب . او ان اعتبر على الأقل ان فى الأمر شبهة عامة ، وانهم انما كانوا يسرقون عن ضرورة ، والحدود تدرأ بالشبهات . وهذه القاعدة الفقهية هى اليوم احدى مرتكزات التشريع الجزائى الحديث ، اذ ان الشك ، كما يقول هذا التشريع ، يفسر دائما لمصلحة المتهم .

وهناك حادثة اخرى ، خالف بها عمر ظاهر النص ، فلقد ادرك هذا الخليفة العبقرى ، ان الاحكام تتغير بتغير الأزمان ، فمنع المؤلفة قلوبهم من سهامهم المفروضة لهم بنصوص القرآن ، وحين طلب اليه أن يعلل حكمه ، اطلق تعليله جريئا صريحا ، فهو يفهم ان الاسلام انما اعطى هؤلاء نصيبا فى الغنائم اتقاء لشرهم ، يوم كان الاسلام طرىء العود ضعيف الجانب . اما وقد قوى الاسلام وانبسط ظله ، ولم يعد يضيره ان تنقلب عليه فئة لاهم لها الا اطماعها ، اما وقد تسامق بنيان الدين ، فلا حاجة له لاسترضاء هؤلاء وليصرف المال فى وجوه اخرى تضمن خير المجتمع ومصالح العباد .

واليكم مثالا ثالثا ، بل امثولة ثالثة ضربها ابن الخطاب ، فاذا هى ثورة على الجمود ، جمود العقل على الحرف ، وجمود الذهنية عن العطاء .

لقد طالبه المجاهدون ان يطبق أحكام القرآن فيوزع عليهم سواد العراق وارض مصر كما توزع الغنائم ، وقالوا ذلك حق لنا نص عليه كتاب الله ، وحمته سنة رسوله ، وقال عمر : لا لن أفعل . وابقى الأرضين لأهلها ،

وطرح عليها ضريبة الخراج،لأن ذلك اصلح لاحيائها ولأنهاتضحى ، والحالة هذه موردا ناميا يغذى بيت المال وينتفع به جميع ابناء الأمة .

وانتهى عهد الصحابة ، وابتدأت عهود اخرى امتدت معها ظلال الدولة الاسلامية ، فانتظمت خليطا من الشعوب ، واظلت كثيرا من الأمم ، وكانت هذه الأمم ، مختلفة النظم ، متباينة العادات والتقاليد واللغات . وشعر المسلمون مرة اخرى ، انهم مدفوعون الى الاجتهاد دفعا ، تقودهم اليه طبيعة الأوضاع الجديدة وضرورات الحياة الجديدة ، فنشطت الحركة الاجتهادية نشاطا عظيما ، وظهر امثال ابى حنيفة ومالك والشافعى واحمد الذين لم يكتفوا باستنباط الاحكام من حوادث واجهها عصرهم ومجتمعهم، بل انهم استنبطوا الاحكام من قضايا تخيلوها أو اعتبروها ممكنة الحدوث ، فأثروا بذلك الفقه الاسلامى ، وأوجدوا ثروة تشريعية هائلة ، تعتبر بحق ، اعظم ارث تشريعى للمسلمين .

شروط المجتهد :

وتجنبا لفوضى التشريع ، وضع الاقدمون شروطا لابد من توفرها فى المجتهد ، منها ان يكون عالما بمواضع الآيات التى يريد الاستدلال بها وابواب الحديث ، وان يعرف الناسخ والمنسوخ فى القرآن ، وان يكون ملما بالاجماع ، فيعلم انه ليس فى المسألة التى يبحثها اجماع يناهض رأيه وان يكون فوق هذا كله ، عالما بلغة العرب واسرارها .

لا جمود ولا عجز فى الاسلام :

ومرت العصور سراعا ، واستفقنا نحن اليوم على مدهشات العلم ومعجزاته ، ومست الحاجة الى مواجهة المدنية الزاهرة ، باحكام جديدة

تنسجم معها وتسايرها وتطلعنا نحن المسلمين الى مؤسساتنا الفقهية ، نلتمس عندها الحلول ، ونطلب اليها ان تدلى برأيها من زاوية الدين .

فماذا كانت النتيجـة :

لقد وجدنا ويا للأسف ، ان عقليتنا التشريعية تسمرت حيث تركها الاقدمون ، وجمدت عند النصوص التى خلفوها . ومعنى ذلك ، اننا اعترفنا بتقصير العقل الحديث عن اللحاق بالعقل الغابر ، بل لم لا نقول : ان معنى ذلك كان الغاء كليا لعقولنا وملكاتنا الفكرية ، حتى ظن الكثيرون خطأ ، ان هذا الجمود التشريعى انما هو نابع من طبيعة ديننا ، وان هـذا الدين فشل فى مسايرة التطور والانسجام مع المدنيات الحديثة .

ما أبرأ الدين الاسلامى ، ايها القارىء العـزيز ، من تهمة التحجـر والجمود ، هذه العلة التى اصيب بها رجاله ، فاتهم هو بها ظلما وعدوانا . وعن جهل بما فيه طاقات عجيبة ، وطواعية قادرة ، ومرونة هائلة ، وزخم حضارى عظيم .

حل واحـــد :

هؤلاء السادة ، الذين زعموا لأنفسهم سدانة الدين ، هم الذين خلوا على فقهنا ظلا من الصنمية والقداسة ، ونسوا ان العقل المستنبط يجـب الا يقف عند نصوص الفقهاء ، ما دامت ينابيع التشريع فى الدين الاسلامى معروفة ، وما دامت هذه الينابيع من التدفق وسخاء العطاء ، بحيث توزع الخصب والنماء ، وتعطى الحضارات مقومات البقاء .

هنالك حل واحد ينفى عن الاسلام تهمة الجمود ، هذا الحل يقضى بأن يفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، دون التفات لأولئك الذين اقاموا انفسهم حراسا على ارثنا الفقهى ، واعتبروه من مقدساتنا التى لا تمس . ثم ان على

الذين يقولون بسد باب الاجتهاد ، فان كان التقليد ، فاننا لم نسمع ان احدا من صحابة النبى صلى الله عليه وسلم وتابيعهم قال به ، وان كان الاجتهاد ، فلماذا لا يحق لمن بعدهم ان يجتهد وهم يجتهدون .

ان بين رجالات المسلمين اليوم ، من اوتوا من الانطلاق الفكرى ، وصدق الايمان ونير العقلية ، ما يمكنهم من استنباط الاحكام الجديدة المنسجمة مع روح العصر ، وما يساعدهم على ان يظهروا الاسلام بمظهره الصحيح ، من التقدمية وسعة الصدر .

ولعل من مفاخر الشيعة الامامية ان باب الاجتهاد ما يزال عندهم مفتوحا ، بخلاف المشهور عند جمهور المسلمين .

أين المجتمع التشريعى الاسلامى :

ولكم نتمنى الآن على رجالاتنا الغيورين على دينهم ان يتنادوا الى تأليف مجمع يتولى اعادة النظر بارثنا الفقهى كله ، وان يستنبطوا ويجتهدوا ويخرجوا الفقه الاسلامى من قوقعته .

ولكم نتمنى أيضا على جامعة الدول العربية أن يتضافر اعضاؤها فى سبيل هذه الغاية ، وان يعملوا جميعا من اجلها ، فلقد اجتهد الأئمة الأربعة وغير الائمة الاربعة ، فى زمن كانت الابل فيه هى معجزة الصحراء ، أفلا يحق لنا نحن ، ان نجتهد فى عصر الذرة والرادار والراديو والتلفزيون والاجرام الاصطناعية .

لقد اجتهد ائمة الاسلام فى العصور الغابرة ، واعتمدوا فى اجتهادهم على القرآن وهدى السنة وروح الدين ، ولم يجدوا حرجا فى ألا تتوافق اجتهاداتهم احيانا ، فلعقل كل منهم حرمته ، ولكل فقيه منهم وجهة نظره ، فكيف يحرم علينا نحن ان نجتهد وان نعمل عقولنا ، وكتاب الله ما زال بين

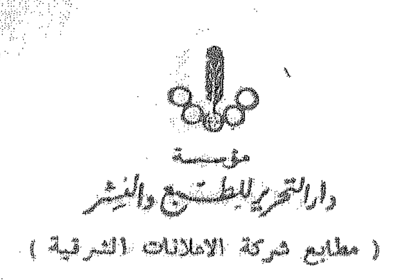
ايدينا وفى صدورنا وسنة رسولنا الأعظم ما فتئت هى النبـراس ، وهى المشكاة التى تبدد الظلمات ، وتهدينا سواء السبيل .

ان التشريعات الوضعية الحديثة ، آمنت بالاجتهاد وقضت على محاذيره وفوضاه ، بتأليف محاكم عليا لتوحيد الاجتهادات ، حين تتضـارب هذه الاجتهادات وتتنافر ، ولم نلجأ نحن بعد فتح باب الاجتهاد ، الى تأليف محكمة عليا ، توحد وجهات النظر وتقارب بينها ، وتخدم الاسلام كما يجب ان يخدم ، وتنقذه كتشريع اجتماعى خالد ، من تهم القصور والجمود ، وعدم الانسجام مع الوثبات التصاعدية للمدنية الحديثة .

ارجو ان يعيد الزمن دورته ، ويسترد الاجتهاد مكانته ، ويمنحنـا الله قوته .

فهـــرس الكتاب


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)